

أَقَامَ الْعَمَلُ الدِّينِيَّ

رقم ٥ - سلسلة المباحث الخطيرة

أفانالجم اللبى

لخصه عن الانكليزية

محمد سعيد

(طبعة ثانية)

صدر عن

دار « الشرق والغرب »

بولاق (مصر) : وكترائية سنت جورج بالقدس

تقديم الكتاب

علم القانون المقارن من العلوم التي لا غنى عنها لرجل القانون لتكوين عقلية القانونية. وعلم الدين المقارن من العلوم المرعية الجانب في كليات الدين لآتارة أذهان الطلاب والباحثين لتفهم وجهات النظر المختلفة ، وتقوية روح الانصاف والتسامح تلقاء آراء الآخرين وعقائدهم .

لهذا رأينا اصدار هذا الكتاب ، وقد جمع بين دفتيه فصولاً عن البوذية والهندوسية والكنفوشية والشتوية ملخصة عن كتاين للاستاذ « ولیم باتون » ، ثم فصولاً أخرى عن الاديان السامية الثلاثة — اليهودية والمسيحية والاسلام — وقد آثرنا أن يتحدث كل من هذه الأديان الثلاثة عن نفسه على لسان عالم من علمائه .

ولم يتعرض الكتاب الى الاديان الوثنية الفطرية . لا لأنها غير خليفة بالدرس ، فان فريقاً من علماء هذا العصر قد توفر على دراستها ، ولكن لان نطاق كتاب مختصر كهذا يحول دون التبسط في عقائد متشعبة اتخذت أوضاعاً متباينة في رقاع كثيرة من أجزاء المعمور .

وفي آخر الكتاب ملحقان — أحدهما يبين القوة العددية لكل من هذه الأديان ، ويبين الآخر تواريخ بعض الحوادث البارزة التي أشير إليها . واكبر الظن أن هذا هو الكتاب الاول من نوعه في اللغة العربية ، فيه من طرافة البحث ولذته ، ما يحمل القارئ على الدرس والتأمل ، وموازنة آراء الآخرين بروح البصفا وحسن التقدير ما

طَبِيعُ فِي مَطَبَةِ الْمَدِينَةِ الْمَدِينَةِ

البوذية

يقال ان للبوذية اتباعاً اكثر من أي دين آخر . ويزعم بعضهم انها ملجأ حصين لخمس مائة مليون من الأنفس البشرية . ولكن الأرقام تخدع كثيراً . وهذا الزعم يستند في الغالب الى ان بلاد الصين بوذية كلها ، بينما يتقاسمها في الواقع أديان ثلاثة هي البوذية والكنفوشية والتاوسية ، كما يتقاسم اليابان اديان ثلاثة أيضاً هي البوذية والكنفوشية والشتوية .

مذاهب البوذية المختلفة

والبوذية تشمل أشياء كثيرة . فهناك المذهبان الكبيران الشمالي والجنوبي ، وينقسم كل منهما إلى عدة من الطوائف . والمذهب الشمالي يكتبه المقدسة في اللغة السنسكريتية منتشرة في الصين واليابان والتبت ونيبال وجاوة وسومطرا . أما المذهب الجنوبي وكتبه المقدسة باللغة البالية فمنتشرة في بورما وسيلان وسيام . ولو ان اتباع هذا الأخير أقل عدداً من الأول ، فانه أقرب كثيراً إلى الاصل ولم يداخله إلا القليل من العناصر الغربية في تطوره التاريخي الطويل . ولذا سنقتصر في بحثنا الآن على هذا الأخير لانه يمثل الدين الاصيل الذي علم به بوذا .

المؤسس

من الحقائق المقررة ان شخصاً هو الذي أسس البوذية . ولقد حاول بعض العلماء إحاطته بأسطورة شمسية ، شأن كثير من شخصيات التاريخ الغارقة في القدم، ولكن الدليل على وجود هذا الشخص جلي لاغموض فيه . ولئن تعذر علينا التمييز بين ماهو حق وماهو أسطوري في تاريخ حياته ، فان الوقائع الأصلية ثابتة مؤكدة. والمعروف ان مؤسس هذا الدين قد ولد في أواخر القرن السادس أو أوائل القرن الخامس قبل المسيح في مدينة صغيرة تقع بين مدينة بنارس وجبال الحملايا شمال نهر الكنج المقدس . وكان أبوه (راجا) زعيم قبيلته وأطلق على أسرته لقب «غوتاما» . واسمه الشخصي «سدهارثا» (اما كلمة «بوذا» ومعناها «المستنير» فليست اسمه الشخصي بل هي اللقب الذي خلع عليه. ولعل «غوتاما» أكثر الألقاب ذيوفاً ، وهو اللقب الذي نطلقه عليه في بحثنا) .

كان ابن ملك ، تحدر من سلالة عريقة المحترمة ، وامتاز بقوى في العقل والبدن . ثم تزوج في سن مبكرة من ابنة أحد الأمراء. ونظر وإذا بالمستقبل الباهر يمتد تحت قدميه. على أن نفسه لم تهدأ على حال من القلق ، ففي غمرة النعيم الذي كان يرفل فيه حامت حول مخيلته أسئلة لم ير لها حلاً . وطفق العقل الحائر ينقب حول معنى الحياة ، حتى امتست الحياة عبثاً تنوء به الظهور. وأعقد مشكلة طغت على نفسه، وهو يتمرغ في نعيم الحياة واطايبها، هي مشكلة الآلام البشرية . فان النعماء التي كان فيها مقبلاً ، جعلت هذه المشكلة شوكة

مسننة في نفسه. وعنه تروى الأقاصيص عن التقائه برجل شيخ قد أفنى المرض بدنه ، أو رؤيته جثة قد أمعن فيها الفساد بلاءً ، فترعبه تلك المناظر وتأخذ عليه السبل . ولم يطل به الأمر حتى لجأ إلى حياة الزهد والتقشف مؤملاً أن تراح الفشاوة عن عينيه، ويغور إلى أسرار معنى الحياة بعد أن يتحرر من ربط الاسرة وهموم العالم ، وينصرف إلى التأمل وامانة الجسد .

بحثهم في التور

وبعد إذ غادر أسرته ارتقى في أحضان بعض المعلمين من النساك فتلقى عنهم تعاليم البراهمة. وقد صاغ النظام الذي وضعه فيما بعد على أساس مطارحاته مع ذلكم نفر من الزاهدين . على ان أساليب تقشفهم ودمدمتهم بالالفاظ المألوفة، مع إغراق عقولهم وتفكيرهم في براهما — كل هذه لم تجده شيئاً .

وكانت الخطوة الثانية ان لجأ هو وخمسة من اترابه إلى غابة هادئة للاختلاء ، والتأمل ، وترويض النفس . وهناك قسا على جسده وعقله وأذلها أيما اذلال ، فكان غذاؤه اليومي حبة من الارز. وجاهد جهاداً عنيفاً لادماج نفسه في الروح الالهي ، كما فعل قليل من زهاد الهند ، حتى 'حسب أعظم القديسين شأنًا في قومه . وفجأة أحس عقم هذه الجهود الضائعة ، وفي شجاعة نادرة صارح زملاءه بأن تجربته قد فشلت ، وعاد يتناول طعامه العادي . فما كان من أصدقائه الخمسة الذين زاملوه في خلوته إلا ان مضوا الى حال سبيلهم آسفين . وكانوا قد أملوا فيه كثيراً حين رأوا غيرته المتقدة ، والآن يرونه يخب آمالهم خيبة مريرة .

أما الخطوة الثالثة فكان سنة كاملة قضاها في تأمل عميق ، وفي عزلة كاملة . وكانت الشكوك والخاوف قد تنازعت نفس غوتاما ، فهو قد اقتنع ان اماتة نفسه واذلالها لم يجدياه نفعاً ، وهو ما يزال حائراً مضطرباً يتخبط على غير هدى . فساورته الافكار ان يعود إلى موطنه و يعدل عن سعيه . وفي ذات يوم جلس يتناول طعام الإفطار تحت ظل شجرة صارت فيما بعد مقدسة في نظر البوذيين، حتى نظروا اليها نظرة المسيحيين إلى الصليب . وهناك قضى اليوم كله ، والليل كله ، في نزاع داخلي ، حتى إذا بزغ نور الفجر ، أشرق عليه نور الحق ينبئه ان شقاء الحياة وعناءها وضجرتها تنبعث من رغبات النفس، وان الانسان يستطيع ان يكون سيد رغباته لا عبداً لها ، وان في مقدوره الإفلات من هذه الرغبات بقوة الثقافة الروحية الداخلية ومحبة الآخرين . فهجّر غوتاما مشهد التريث والانتظار، وطفق يحمل رسالته إلى العالم ، رسالة قد نقشت على قلبه بأحرف من نار. ولقد حدثته نفسه أن يحتفظ بهذه الرسالة لنفسه، ويستمتع بالنور دون أن يشرك فيه أحداً ، لانه خشي ان يقصر الناس عن فهم رسالته قبل أن يختبروا طور التدريب والمران الذي اختبره هو. وقيل إن الباطن الذي دفعه إلى أن يكون مرسلًا ومبشراً هو محبته للبشرية ورغبته في أن يشاطره الناس هذا الحق الجديد المهدب للنفس . والبوذيون الاتقياء يشكرون الله في غير انقطاع لاجل هذا الصنيع الذي أتاه بوذا وأنكر فيه ذاته .

هياته وتعاليمه

ذهب أولاً إلى الرفاق الخمسة الذين هجروه ، وحين سمعوا قصته ، قبلوا رسالته وتبعوه . وكان بين أنصاره الاولين فئة من الشبان ذوي الكرامة والمكانة . وفي قليل من الزمن جمع اليه ستين من صحابته ، وجعل منهم نواة الهيئة التي بعثها لنشر دعايته والتبشير برسالته . أما هو فعاد إلى مسقط رأسه ليرى أبويه وزوجته . وعبثاً حاولوا اقناعه للعدول عن دعوته — وقد قال لأبيه الذي عاب عليه استجداءه في الطرقات وذكره بسلالته الملوكية : « قد تدعي أنت وأمرتك التحدر من سلالة الملوك ، وأما أنا فأنتسب إلى نسل بوذا منذ القدم ، وهم قد عاشوا يستجدون طيلة حياتهم كلها » . وظل أربعين سنة يجاهد في نشر دعوته وتثبيت النظام الذي وضعه متنقلاً من مكان إلى آخر ، يتناول الطعام الذي يجود به عليه الخيرون من الاغنياء والفقراء ، ويعلم كل من أقبل اليه للاسترشاد به . وفي الثمانين من عمره قضى نحبه . وله من الكلمات التي تفوه بها على سرير الموت ما خلده التاريخ . فهو القائل : « كونوا لانفسكم نوراً ، وملجأ حصيناً ، ولا تلوذوا بغير انفسكم » — « قد تفكرون في انفسكم قائلين : الآن انتهت الكلمة بعد إذ قضى معلمنا ، ولكن اياكم وهذا التفكير . واعملوا بعد موتي لتثبيت الناموس الذي علمتكم اياه والنظام الذي أرشدتكم اليه . وكونوا لانفسكم خير المعلمين » . وأما كلماته الأخيرة فهي : « أيها الشحاذون المستجدون : الآن أوصيكم بان عناصر الانسان وقواه ينبغي أن تذوب وتفتي ، فتمموا خلاصكم بمجد ومثابة » .

مؤثرات الشخصية

كان لاخلاق غوتاما الشخصية ، أكبر الأثر في الدين الذي أسسه ، ولو ان الكلمات التي اقتبسناها الآن تدلنا على انه لم يوصىء إلى نفسه بل إلى الحق الذي أعطاه . وقد كانت رقة نفسه وهدوؤها ، ومحبتة للانسانية ، ورغبته في انكار ذاته لتخفيف الآلام والافواج — كانت هذه كلها أفضل العناصر في أخلاقه التي يرجع اليها أكبر الفضل في نشر تعاليمه . ونشاهد حتى اليوم ، حيث تتحرر البوذية من الملابس المتأخرة ، ويبدو شكل بوذا مجرداً عن عوامل الاصطناع ، شيئاً من هذه الصفات الادبية في نفوس اتباعه والمؤمنين به .

وفي الكتب البوذية قصة تصلح مثلاً على كرم أخلاقه : يُروى ان فلاحاً برهياً كان يحرق حقلاً ، وإذا ببوذا يجيء اليه وفي يده وعاء يستعطي فيه فقال له الفلاح : « أيها الناسك : عليّ ان أحرق وأزرع ، لأكسب عيشي . فعليك أنت أيضاً ان تكافح وتعمل ثم تأكل » . فأجابه بوذا : « أيها البرهي : أنا أحرق وأزرع ، وبغير هذا لا آكل » . فيقول له الفلاح : « لا أرى نيراً ، ولا محراثاً ، ولا منخساً ، ولا ثيراناً » . ويحييه بوذا بعبارات شعرية قائلا :

« أنا فلاح بحق ، أيها السيد ، والآراء الصائبة هي البذار المثمر الذي أبذره . وتدريب النفس هو المطر الذي أسقي به . أما الحكمة فهي نيري ومحراثي ، والوداعة ميسي ، والاهتمام بالغير محور عجلي ، واليقظة منخسي ...

« وبتهذيب الفكر والقول والفعل أنقي الأرض من أعشابها الضارة ،
وبطريق الخلاص أنادي . . . »

« أما ثوري فهو السعي المتواصل الذي يحماني في غير ملل الى حيث
لا يصيبني حزن حتى أقرب الى نرفانا ، وهو الهدف الذي اليه أسعى .
عندئذ يصبُّ الفلاح البرهمي الارز الممزوج باللبن في وعاء من الذهب
ويقدمه الى غوتاما قائلاً : —

« في الحق أنت فلاح بكل معنى الكلمة . وحصاد الحق هو طعامك
الشهي . اشرب هذا يا سيد هنيئاً . وبعد اليوم أنا أطوع لك من بنائك » .

الحقائق الأربع

وغوتاما نفسه ينكر انه جاء لينادي مبدئياً بنظام في الآداب والاخلاق .
ولكنه رغب في أن يقتبس البشر الحقائق الأربع التي تلقاها تحت الشجرة
المقدسة ، والتي هي أساس النظام الذي وضعه . أما هذه الحقائق فهي :

١ — الولم أو الحزن : الولادة ، والنمو ، والمرض ، والموت ، وفراق الاحياء ،
وكل ما يتصل بوجود الفرد — هذه كلها تجيء علينا بالأحزان .

٢ — عدة الحزن : إن احتياج العاطفة بعد ثورتها ، واللذة في تملك
الاشياء أو الرغبة في احتيازها ، والشهوة ، ومحبة العالم الحاضر ، والشوق الى
عالم مستقبل — وقصارى القول الشهوات والرغبات ، هي أصل آلامنا وأوجاعنا .

٣ — ابطال الحزن : يبطل الحزن متى بطلت شهوة الحياة وانتفى الظلم
الى هذه الاشياء .

٤ - طريق ابطال الحزنه : ولتحقيق هذا طريق واحد ، هو الحياة الفضلى المفكرة ذات الثماني شعب .

أما هذه الشعب الثمان فهي :

الآراء السليمة ، والشعور الصائب ، والقول الحق ، والسلوك الحسن ،
والحياة الفضلى ، والسعي المشكور ، والذكرى الصالحة ، والتأمل الصحيح .

الاطوار الاربعة

ولهذه الطريقة أربعة أطوار (والبوذية حافلة بعدد لا يحصى من الاحكام والحقائق ، والردائل والفضائل ، يعرفها البوذيون بالاسم ، كما يعرف المسيحيون وصاياهم العشر) . وفي خلال هذه الاطوار الاربعة تنكسر القيود العشرة . فالطور الاول هو الاحياء والتجديد حين يدرك الانسان معنى الحقائق الاربعة المشهورة . وعند بلوغ هذا الطور يقوى على كسر القيود الثلاثة الاولى - وهي الوهم الخادع في وجود النفس ، والشك في بوذا وتعاليمه ، والاعتقاد في تأثير الطقوس والرسوم الدينية . أما في الطور الثاني فيقوى المهتدي على التخفيف من حدة الشهوة والكراهية وغرور الاوهام . وفي الطور الثالث يحطم قيود الشهوة تحطياً . وأما الطور الرابع فيسمى صراط المقدسين ، وفي هذا الطور يتحرر القديس من القيود الباقية ، وهي الرغبة في البقاء المادي وغير المادي ، والكبرياء ، والاعتداد بالبر الذاتي ، والجهل . وعند بلوغه هذا الطور يكون قد وصل الهدف الذي يسعى اليه ، وهو « نرفانا » .

ما هي النرفانا ؟

قلنا ان « النرفانا » هي الطور الرابع الذي يبلغه البوذي في مصارعاته وجهوده النفسية عن طريق الاذلال والتعبد . فما هي النرفانا هذه ؟ الفكر السائد أنها الاندماج في الله والفناء فيه . ولكن البوذية لا تعرف إلهاً قط ، وفكرة هذا الفناء في الالهية غريبة غير مألوقة فيها . وكانت رغبة الفناء في الله من الرغبات التي تآقت اليها نفس غوتاما مؤسس البوذية ، وهو يمارس أساليب إذلال نفسه قبل أن تستعلن له الرؤيا تحت ظلال الشجرة المقدسة . ولكن مطامعه قد تبدلت فيما بعد ، أما النرفانا في عرف البوذي فهي الطور الرابع الذي يبلغه الناسك الزاهد بعد أن يكون قد حطم كل قيود نفسه وأغلاها ، ورغب عن شهوة البقاء ، وتملكه عقل هادئ مطمئن لا يتسرب اليه الخطأ ، وتجرد عن كل الأماني والرغبات والجهالات وأسباب الخديعة والاغراء . بعد هذا كله يبلغ البوذي طور « النرفانا » ، يبلغه في حياته على الارض كما فعل غوتاما .

والحقيقة الاساسية في تعاليم مؤسس البوذية هي « ناموس العلة والمعلول » . فالكون في نظره وحدة متصلة متماسكة ، ومجموعة مركبة لا انفصام بين أجزائها . وهو مركب من مجموعة هائلة من العناصر المختلفة لا تزيد ولا تنقص بل يُعاد توزيعها باستمرار ، ويعاد ترتيبها ووضعها بحكم الناموس الخاضعة له . وكل مجموعة جديدة ان هي إلا علة نشأت عن المجموعة التي تقدمتها . ولكن غوتاما لم يقل شيئاً عن تلك « العلة الاولى » الذي يدبر دفة هذا الكون ، ومحظور على البوذي التقى أن يبحث في هذا .

وكانت الصلة بين هذه الفكرة عن العالم، وبين طبيعة الانسان في غاية الخطورة . فللإنسان ، فضلاً عن كيانه الجسماني ، خواص عدة هي المشاعر والاحاسيس والآراء والميول والقوى العقلية . وهذه الخواص ، مقترنة بالكيان الجسماني ، تكون ما نسميه « النفس » أو « الذات » .

على أنه لم يكن في عرف « غوتاما » (خلافاً للبراهمة الذين صاغوا الفكر الهندوسي) شيء يدعى « الذات » أو « النفس » . ومعنى هذا أن « غوتاما » لم يسلّم بوجود « الذات » كشخصية موحدة . ولم يرَ إلا تلك المجموعة من الخواص أو الصفات الخاضعة للناموس الذي قلنا عنه فيما سبق ناموس « العلة والمعلول » . وهذه الخواص والصفات توزع من جديد عند الموت . وانتفاء هذه الشخصية الموحدة يعني إنعدام الخلود بعد الموت . وما كان يقال ان « الذات » أو « النفس » تنعدم عند الموت . ذلك لأنه لم يكن لها وجود في الاصل . أما العناصر التي يتكوّن منها الانسان فمصيها عند الموت (في رأي غوتاما) التفكك والتجمع ثانية في وجود جديد في مجموعة جديدة .

والمفروض أن العناصر المكوّنة للإنسان ينبغي أن تخضع للناموس العام في الكون . ويتولد عن هذا الخضوع تناسق في المجموعة كلها . غير أن الاماني والرغبات في الذات البشرية هي التي تولّد التنافر . وذلك لأن خواص الانسان ، من أحاسيس وميول وآراء ، متى اتصلت بالعالم الخارجي تخلق رغبة ملحة .

وهنا يحق لنا القول ان كثيراً من هذه الرغبات والاماني صالحة لا غبار عليها ، ولها ما يبررها . ولكن غوتاما لا يسلّم مطلقاً أن الرغبات والاماني قد

تكون صالحة . فالرغبات عنده تنشأ عن الاعمال صالحة كانت أو شريرة ، ولكنها تعمل على إقصاء النفس من الحياة المركزية في الكون . وعند الموت تُنتج الرغبة ، التي يكون قد أشبعها الانسان ، وكذلك تُنتج الاعمال التي نشأت عنها ، كائنًا جديدًا . فان كان للانسان شهوات حيوانية وحشية ، تتجمع هذه العناصر كلها ، وقد تخلق بعد موته حيوانًا شرسًا وحشيًا كالنمر .

قلنا ان النرفانا هي الطور الذي يبلغه البوذي في حياته بعد أن يتجرد من أمانيه وجهالاته . فاذا مات الجسد تزول الاماني والرغبات ويسري عليها ناموس « الكرما » ، أي أن كل عمل يأتيه الانسان له ثمرته حتمًا ، وأن كل شيء يختبره في كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقرر اعمال التي يأتيها في الوجود السابق وهي بمثابة كفارة . فالنرفانا ليست في حد ذاتها موتًا ، بل هي حالة في السلام المقيم ، والقدااسة الكاملة ، والتجرد من الاماني ، والرغبات ، ومن كل الاشياء التي تغري الانسان على التثبت بهذا الكيان المستقل — هي جنة البوذيين التي ينعمون فيها بعد التطور الادبي في الطريق ذي الشعب الثمان بأطوارها الاربعة .

ولذلك اكتفى بأن أعطى عامة الشعب مجموعة هائلة من التعاليم الادبية والاحكام والوصايا التي أودعها كتبه وأسهب فيها بقصص ذات مغزى أدبي . وهو يعتقد أن قليلين جداً هم الذين يبلغون النرفانا في جهادهم الاخلاقي .

طبيعة الانسان

وهنا نكمل ما أسلفنا من أفكار لتبيين حقيقة الفكرة البوذية عن

الانسان ونقارنها بالفكرة المسيحية: أنكر بوذا صراحة وجود النفس البشرية. وعنده ان الشخصية الظاهرة تتكوّن من خمسة عناصر — هي الخواص المادية ، والحواس ، والآراء المجردة ، والميول السابقة ، والافكار . وهذه كلها تنحلّ عند الموت وتنفك . ولولا وجود الرغبات ، لما امكن أن تتحد هذه العناصر مرة أخرى . ولكن هذه الرغبات (وهو لا يعني بها مجرد الرغبات الدنيا الحيوانية، بل يقصد الرغبات اطلاقاً ومنها رغبة الوجود الفردي المستقل) تسوق الى العمل ، والعمل يسوق — بدافع ناموس الكرما — الى خلق شخصية جديدة ، وإيجاد نواة جديدة تتجمع حولها عناصر النفس . ونظرية الكرما الهندوسية^(١) أساسها أن للانسان شخصية مفردة مستمرة متداولة في حياة متتابعة . ويظهر أن الشخصية في البوذية وهمية خيالية .

والدين المسيحي — كما لا يخفى — متصل باليهودية ، لاحق لها . ولذلك يحسن أن نبدأ بفكرة أنبياء اسرائيل عن الانسان وعن العالم ، وهي من الخلفات الثمينة التي بقيت تراثاً للجنس البشري من أنبياء اليهودية . فالعالم والانسان مدينان بوجودهما — حسب الفكرة اليهودية — لله وهو مصدر بقاءهما ودوامهما . هو الخالق عز وجل . وبهذا المعنى لا يكون الفرد منشقاً من الله ولا جزءاً منه . انما الله متعال متسامٍ فوقه . وكما ان هناك خطأ فاصلاً يميز الفرد عن أخيه في الانسانية ، كذلك هناك خطأ فاصل يميزه عن الله تعالى . وبين الشخصية الانسانية والشخصية الالهية شبه . لان في الانسان بعض ما هو إلهي بنسبة استجابته لنداء الله والاقتراب منه . ولكن ليس

(١) انظر فصل ٢

الانسان جزءاً من الله. ولا هو عنصر من عناصر وجوده تعالى. كذلك ليس العالم جزءاً من الله ، ولا مشاركاً له في الحدوث والقدم

ولقد حسب انبياء اسرائيل العالم ، الذي وضعهم فيه الله ، ميداناً يتعلم فيه الانسان بالاختبار، وهم لم يقبلوا العالم قبولاً سليماً بل حسبوه مكاناً يُكافح فيه الشر وينشط فيه الخير. ومواهب الانسان هي « الصداق » ليفعل ما يريد الله منه، فيغلب بذلك ضعفه ويتحول قوة، وتستقيم رغائبه وميوله وترقى الى الاشياء السامية، حيث يفلت من التجربة والغواية. وما أبعد الفرق بين هذه الفكرة وبين نظرية « الكرما » والعالم الخيالي الوهمي في البوذية. ولقد آمن الانبياء ان الخير والشر اللذين يحلان بهم هما بمثابة فرص سانحة للخدمة تؤدي بالطاعة والرضا استجابة لدعوة الله ، ولا وجه فيها للاستحقاق الذاتي . وما كانوا ليستسيغوا قط فكرة تقول ان ما يحلُّ بهم في الحياة انما هو نتيجة أعمال وتصرفات وقعت في وجود سابق. ثم هم حسبوا هذا العالم ايضاً حقيقة خارج أنفسهم وذواتهم ، عيَّنها الله العزيز الحكيم . أما النظرية التي تجعل العالم وهماً وخيالاً تخلقه رغبات الانسان فما كان لها عندهم أثر ، ولو أنها خطرت على بال أحد في يومهم لحسبوه اثماً وتجديفاً ، بله بطلاً وسخفاً .

وهذه الفكرة قد افترضها العهد الجديد فرضاً . وان حقيقة المسيح لتجعلها الملع نوراً واكثر شمولاً في بساطتها العميقة . ولكن معانيها الجوهرية تتفق تماماً مع اعلان الانبياء . ويذهب العهد الجديد في تحليل أصل خطية الانسان الى أبعد مما ذهب اليه الفكر الاغريقي ، فبينما ذهب الفكر الاغريقي الى الاستقرار الى أن العقل هو جوهر الانسان، عارضه في هذا الفكر المسيحي.

وذهب الى أن الإرادة الادبية هي مركز الدائرة. وليست الخطية في الانسان مجرد جهل ، ولا هي مجرد الاتقياس في عالم مادّي زائل . انما هي معصية الانسان الذي يُخلق ليحبّ الله ويفعل مشيئته طواعية واختياراً . ثم ان الفساد الذي في قلب الانسان ، الذي يُخلق على صورة الله ، يُنظر اليه نظرة عميقة فاحصة . على أن المسيحية ليست ديناً ارسقراطياً ، ولذلك لا شيء في العالم عندها تعدل قيمته تلك النفس البشرية، مهما أوغلت في الجهل، ومهما وهنت من الضعف والهزال .

* * *

والبوذية نظام معين من حيث رجالها وخدامها . ولقد عرفنا من قبل أن « غوتاما » ذهب الى أن الطريق الى النرفانا والحياة الروحية السامية لن يبلغها إلا أشخاص أفرزوا أنفسهم لهذا الغرض . ولذلك وضع رتبة للنسّاك للترهدين .

وكان محتمّاً على من يريد الدخول الى إحدى رتب النظام الديني أن يستشير أولاً والديه . ويمكن قبوله في الثامنة من عمره . ولكنه لا يُرسم في وظيفته قبل العشرين . أما حفلة القبول فلا تخرج عن إجراء بعض الطقوس ، وترداد بعض الألقاظ . ويُفرض على الناسك التبتل ، ويحظر عليه الرقص والغناء والمسارح أو أخذ الفضة أو الذهب . ولا يأكل في اليوم إلا وجبة واحدة في الضحى . ويحمل في يده طبق الاحسان متنقلاً من بيت الى آخر ، لا يقول كلمة لأحد ، ولا يؤثر الغني على الفقير عند طلب الاحسان .

وقد عاش أولئك النسّاك في الأديرة التي شرع في تشييدها في زمن

« غوتاما »، نفسه وارتدوا الثوب الاصفر البسيط ، أما عملهم فكان ، علاوة على صيانة الأماكن المقدسة ، الدرس والتأمل .

وليس لدينا من تاريخ البوذية المتأخر إلا القليل من المعلومات — منها ان امبراطوراً شهيراً يدعى «اسوكا» بسط سلطانه على بلاد الهند كلها حوالي سنة ٢٥٠ ق . م . وشجع البوذية بكل قواه ، فكان لها كما كان الامبراطور قسطنطين للمسيحية .

وفي الشمال حادت البوذية عن أصولها، ونسى القوم انسانية بوذا، وأخذوا يبتكرون عدداً من الآلهة ذكوراً وأنثاء . واستحالت عقيدة بوذا القائمة على انكار وجود الله ، الى عقيدة تعدد الآلهة الوثنية . وهكذا اضطربت العقائد في الجنوب ، فبعدت كثيراً عن الاوضاع التي أرادها بوذا نفسه .

وأنكر بوذا الصلاة . ولكن أتباعه أخرجوا ما لم يبتدعه أي دين آخر ، ألا وهو الصلاة الآلية القائمة على مجرد التكرار الممل . فكانوا ينقشون بعض الألفاظ السحرية على عجلات للصلاة يديرها الهواء أو قوة اندفاع الماء . وفي كل مرة تلف العجلة لفتها ، وترتفع الكلمات المنقوشة نحو السماء ، تُردد صلاة هي مجرد تكرار . ولو كان بوذا نفسه حياً لانتفض خجلاً من هذه الابتكارات الصبائية .

كيف يكتمل هذا القصر في البوذية

وبعد هذا نرى كثيراً من الحق والخير في البوذية ، وكثيراً من السخف والحماسة . ونرى بوذا نفسه رجلاً قد أحسَّ بحاجة العالم، فقضى زمناً طويلاً في

صمت وتفكير ، وعانى نزاعاً روحياً عقلياً ، وعاش حياة مجردة عن حب الذات ، نقياً ، طاهراً ، صبوراً ، رقيقاً .

ولكن ما أعظم الفارق بين صمته حيال بعض الأمور الخطيرة ، وبين النور الوهاج الذي خلعتة المسيحية عليها . فبوذا صمت ولم يذكر شيئاً عن الله . ولكن المسيح اقتاد البشرية الى الله الآب . وقد رأينا في البوذية المتأخرة ان القوم نسوا انسانية بوذا فاتخذوه معبوداً . وكل دين يقوم على انكار الله يعرض نفسه للانهييار . ذلك لان البشر لا يرضون نظاماً تنتفي فيه كل فكرة عن أصل الحياة ومنشئها ومصيرها . فاذا خلت السموات من ربها ، بادر البشر على التوّ الى ملئها بآلهة من مبتكرات خيالهم . فهذا الفراغ الذي أحدثه بوذا بانكاره الله ، تكلمه المسيحية بالله الآب الذي أعلنه المسيح ، الذي يجمع بين البشري والالهي في رابطة من المحبة لا تنقسم وشائجها .

وأفكارنا الصائبة عن الله تتبعها حتماً أفكار صائبة عن الانسان . فمن ناحية واحدة نرى « غوتاما » يرفع الانسان الى درجة سامية لا يدانيه فيها أحد . ولكنه من ناحية أخرى يخفضه إلى مرتبة وطيئة بنظرته المتشائمة في الحياة ، واقامته نظام التبتل والاستجداء ، وامتهان الجسد البشري . وما أعظم الفارق بين التأمل في الجسد « كجثة متعفنة سريعة العطب والفناء » ، وبين « اعتباره هيكلًا للروح القدس » ! فالحياة في نظر « غوتاما » شيء كرهه ينبغي التخلص منه والطهر من أوزاره ، واما « النرفانا » فهي لا شيء للانسان العادي لأنه لن يقدر أن يبلغها ، وهي في جوهرها أشبه بالفناء . وانه لأنبل وأجدى أن نفكر في الشخصية البشرية وقد تطهرت وتهذبت

شهواتها وميوها ، من أن تفكر فيها وقد عدت تلك الشهوات واندثرت .
ومع احترامنا للناموس الأدبي الاخلاقي الذي وضعه بوذا ، وما ترتب عليه
من نتائج الاحسان والاشفاق المتبادل بين أتباعه ، ينبغي ألا يغرب عن
الاذهان أنه يقيم نوعاً سلبياً من أنواع الحياة . وهو لهذا عدو التقدم والرفق .
ومن هنا كانت البلدان التي سادها الفكر البوذي أقل البلاد سعياً في ميدان
الحياة ، وأضعفها أثراً في اكتساب العالم الى ملكوت الله .

وإن قلنا ان البوذية تجد في المسيحية ما ينقصها من اعلان مظهر الله
الآب ، وعلان حقيقة الانسان . فانها تجد فيها أيضاً رسالة الخلاص من
الخطية . ذلك لأن البوذية تفرض قواعد صارمة لبلوغ «الكرما» . ويطغى
على البوذية من جراء ذلك فكرة الناموس واستحقاق الشخص الذاتي .
وبينا تقوم «الكرما» وازعاً الى الصلاح ومانعاً عن الخطأ ، فانها تولد
نوعاً من الفضائل يظنها المرء مكتسبة بجهوده الخاصة واذلال نفسه . وليس
في البوذية أمل للنفس التي يشتد بها الصراع وتخور في العراك ، ولن تمتلئ
النفس بفكرة متعمقة عن قداسة الحياة ، وشعور الحاجة الى قوة تسند وتعصد
في الصراع ضد الخطية ، إلا متى تلاقت النفس وجهاً لوجه مع الله ، وانتفت
فكرة « الاستحقاق » الذاتي ، وعمر القلب بفكرة الاتكال على صلاح الله
وجوده . وهنا تشير المسيحية الى ناموس المحبة : وربما يمجُّ البوذي أكثر
من سواه كل تعليم عن كفارة المسيح مما لا يأتلف مع شعور العدالة . ولكن

حقيقة محبة الله الغافرة التي لا تتجاوز عن الخطية بل تحملها في نفسها ، توظف في قلب البوذي الشعور بالخطية ، والحاجة الى اعادة الصلة المنقطعة مع الله .
ففي البوذية كثير مما يعتد الطريق ويعدّها لقبول المسيح . ومتى اخلص البوذيون لبوذا يصيرون الى المسيح اكثر اقتراباً . لأن النموذج الاخلاقي الذي وضعه بوذا لا يعلو عليه نموذج آخر في المبادئ التي وضعها أصحاب الأديان الاخرى - سوى المسيح . والفارق ان بوذا دعا الى ثقافة انسانية ، أما المسيح فقد أدخل حقيقة الله الى حياة بني الانسان .

الهندوسية

(وهي دين الغالبية في بلاد الهند)

من ألد البحوث وأمتعها في عالم الدرس، البحت في أديان الهند. والهندي بطبيعته انسان متدين يشغف بالروحانيات. ونحن اذا راقبنا عن كذب مفكرها وزهادها، وكيف يصارعون مشاكل الحياة والموت، ويسعون دائبين الى معرفة الله، لا يسعنا الا الاعجاب بزهد الالوف والربوات من شعوبها وتقواهم وورعهم.

وفي بلاد الهند أديان كثيرة. ولكن الهندوسية (Hinduism) هي دين الغالبية. وليس لها مؤسس يمكن الرجوع اليه كمصدر لتعاليمها وأحكامها. ولكنها دين التطور، وبين ثناياها وثنية ساذجة، وآراء فلسفية سامية، وزهد صادق. كل هذه ممتزجة معاً بحيث يصعب الالمام بالدين كله جملة واحدة.

الكتب المقدسة : Vedas

في تاريخ بعيد يرجع الى سنة ١٥٠٠ ق. م. أخذ قسم من الجنس الآري يستوطن الأقاليم الغربية في بلاد الهند. وذهب قسم آخر الى بلاد فارس، فكانهم من السلالة عينها التي أنتجت أجناس الكلت والتيوتون والسلاف. أما دين أولئك المستوطنين الأولين فنجدته في أناشيدهم المقدسة

Vedas . وآلهتهم هي الطبيعة والسماء وإله المطر وإله النار وما شاكلها . والهندوسية دين فرح متهلل ، ويخيّل إلينا ان اتباعه يعيشون دائماً في ربيع العالم ، وآلهتهم ملتزمة برّاقة ، ويلتمس الاتباع منها أن يعيشوا مائة من السنين ، ومن ثمّ يترقبون الانطلاق للقاء أحبائهم في السماء .

وتقرب بعض أناشيدهم الى الوحدانية . ونرى في شكل إله السماء Varuna آثاراً لبداية الاعتقاد بفكرة إله أدبي ، التي كان يحتمل أن تتطور الى فكرة روحية رفيعة الشأن .

ويتجه الليل عندهم الى التفاضل بين آلهتهم المختلفة ، والتفكير في كلّ منها بدوره كأنه أسمى من غيره . وما تزال فكرة تعدد الآلهة هي الغالبة حتى اليوم في الهندوسية . ومع ان دين الكتب المقدسة vedas قد اندثر تماماً في بلاد الهند ، فان الكتب ذاتها ما برحت موفورة الكرامة تتلى بعض آياتها في العبادة والحفلات .

والكلمة veda تشير الى الكتب القديمة التي يرجع تاريخها الى ٨٠٠ - ٥٠٠ ق . م . وعنها تطور ونشأ العنصر الكهنوتي ، وارتقت الناحية الفلسفية في الدين . ولم يلبث الدين الآري الساذج حتى استحال الى دين قوامه الذبائح والطقوس . ومما يقال إن الكتب البرهمية شملت من مصطلحات « الذبائح » أكثر مما جاء في كتب اليهود ، أو أية مؤلفات أخرى . وأما الطقوس ، فوراها رغبة التملص من الخطية والتصالح مع القوة السامية في الكون أينما كانت . ومع تطور فكرة الذبائح تطورت الفكرة عن الله ، فهو الآن في نظرهم جوهر الكون والحقيقة بأكملها ، السائدة كل الأشياء والمتداخلة في

كل الاشياء . والاسم الذي يطلق عادة على هذا الجوهر غير الشخصي هو « براهما Brahma » ، ويسمى أيضاً « Paramatma أو الذات السامية » . وليس لهذا الجوهر صفات ، ولا يوصف إلا بالافكار جامدة ومعينة وثابتة ، والروح عنه انه صالح أو عامل ، لأن هذه الافكار جامدة ومعينة وثابتة ، والروح اللانهائي يمتد محدوداً متى أطلقنا عليه هذه الاوصاف . والكلمة التي تطلق عادة على النفس البشرية Atma تدل على أن تلك النفس مقترنة ومتحدة بالذات السامية Paramatma . و « براهما » هذا ليس خالقاً ، فهو فكرة ذهنية أكثر منه ارادة عاملة . وإنما يُظن انه خلق العالم على النحو الآتي : أخذ براهما يتأمل ويفكر ، وعن تفكيره هذا نشأت بذرة مخضبة ، تطورت الى بيضة ذهبية ، ومن تلك البيضة ولد براهما (مذكر) خالق كل الاشياء . وهذه الفكرة صعبة مقدرة أمام عقل القارئ ، ولكن حسبنا أن نقول هنا إن جوهر الكون - الله - عندهم هو إله غير شخصي ، impersonal . ومع هذا البراهما « غير الشخصي » تقترن النفس البشرية وتتحد فيه .

وهذه الأفكار الدينية الفقهية مضرة غير محدودة في كتبهم المقدسة القديمة ، ولكن المفكرين المتأخرين هم الذين صاغوها أفكاراً في نظام متلاصق . وما تزال هذه الكتب المقدسة المصدر القديم الذي يلجأ اليه المفكرون ورجال الدين .

نظام الطبقات :

ولا بد من كلمة هنا عن كيفية نشوء البراهمة وظهور الطبقات . فالبراهمة

كما يؤخذ من مدلول اسمهم يتصلون في طبائعهم بالعنصر الالهي . فهم كهنة الأمة لا تجوز الذبائح الا في حضرتهم وعلى أيديهم . وهم شعب مختار يقضون حياتهم تحت شروط صارمة وفي مظاهر عابسة . والحق ان تطور البراهمة قد استغرق أجيالاً طويلاً ونشأ عنه مساوئ شنيعة ، ولكن لباب الفكرة هي انشاء كهنوت ملكي لا يتدنس بلبس الخلائق الوضيعة ، كهنوت مفروض عليه الحياة المقدسة الطاهرة .

والبراهمة هم أسمى الطبقات . أما الطبقات الاخرى فكانت في الاصل (المحاربين) و (التجار) و (الخدم) . وقد كان المحاربون أولاً أسمى الطبقات وأرقاها فحلَّ البراهمة محلهم . ويرجع هذا التمايز بين الطبقات الى العصور السحيقة . ولعله راجع الى رغبة الغزاة الآريين القدماء في حفظ سلالتهم نقية ، فلا يدنسها الامتزاج بالسكان الوطنيين في بلاد الهند ، وهم جنس يختلف عن جنسهم ، أسمر منهم في اللون وأحط في درجة الرقي . والطبقات الثلاث العليا تمثل الأقسام الثلاثة الاصلية للهيئة الاجتماعية في عصورها الاولى . وأما الطبقة الدنيا فهم الخدم والأجري في الهيئة . وبعد هذه الطبقة الدنيا يجيء المنبوذون في نظام الطبقات (outcastes) — وهم في الاصل فريق من سكان البلاد الأصليين حالت وضاعتهم دون اعتبارهم حتى بين الطبقة الدنيا من الخدم والأجراء . وقد قضت الهندوسية في عصورها المتأخرة أن يوكل الى البراهمة دون سواهم الوظائف الكهنوتية التي تفرضها الكتب المقدسة . وليس معنى هذا ان كل البراهمة منخرطون في سلك وظائف الكهنة ، ولكن هذه الوظائف لا تُعطى لغير رجالهم . ونظام الطبقات هذا بما انطوى عليه

من الحظر الديني في امتزاج الناس بعضهم ببعض ، والاحساس الحاد القوي
بالميزة الاجتماعية واللونية، هو الرابطة التي تقوي الوشائج بين الهندوس في الهند،
وهو في الوقت نفسه الحائل القوي دون تقدم الهند وريقها . فالانسان قد يولد
فرداً في طبقتة ، أو قد يولد منبوذاً من كل طبقة . وفي أحياء كثيرة يُعتبر
مجرد لمس المنبوذ دنساً ورجساً في نظر آخر من أبناء الطبقات . وفي أحياء
أخرى يلحق الدنس والرجس بالشخص اذا مرّ به المنبوذ على بعد بضعة أمتار.
وفي كل مكان ترى قواعد صارمة تمنع اللواكلة بين أبناء الطبقات المختلفة
أو تناول طعام لمسته أيدي أحدهم . والخطر كل الخطر في مخالفة هذه القواعد.
أما التزاوج بين الطبقات فقد حرم من زمن بعيد ، وما يزال هذا الحرمان
قائماً في أشد أوضاعه .

والحق ان لنظام الطبقات في بلاد الهند على ما هو عليه من صرامة
وجود أبعاد الأثر في حياة الشعب الهندي . فهو يقضي باقصاء خمسين مليوناً
من المنبوذين عن الحياة العامة اقصاء تاماً . وهو ظل قائم يتبع المرء من
يوم مولده الى يوم حتفه . فهو قد يفكر ماشاء له التفكير ، ولكنه يوم يعتدي
على قواعد نظام الطبقات ، فقد أمسى لساعته طريداً محتقراً Pariah لا يُقام
لوجوده وزن بين أسرته وأصدقائه والذين عاش فيما بينهم ، أمسى كلباً منبوذاً
شارداً outcaste

تعاليم نهرو في فطيرة : نجاوال الروح ، الاعمال ، الروحاني
وعلاوة على الكتب الهندية المقدسة وما احتوته من الاحكام والانشيد،

فهناك فكر ثلاث تؤثر أعمق الأثر في العقلية الهندية - أولها فكرة تجوال الروح . فهم يعتقدون أن الأرواح جائلة متنقلة في أطوار شتى من الوجود . تنتقل من جسد الى آخر ، سواء أكان في الانسان أم الحيوان ، في طريقها الى هدفها الأخير . وهذه الفكرة التي تُعرف عادة بتناسخ الأرواح ، والتي لها نظائر في كثير من بلدان أخرى ، متأصلة تأصلاً عميقاً في قلب الهند .

أما الفكرة الثانية فهي فكرة الاعمال (Karma) وهي متممة لفكرة تجوال الروح . وهي لا تعلل فقط حقيقة أدوار الميلاد المتكررة التي تنتقل فيها الروح ، بل تبين أيضاً شرائط هذا الميلاد ، وما يستتبعها من عدم المساواة الصارخة في المصير البشري . وتقوم النظرية على أن كل عمل يأتيه الانسان له ثمرته حتماً ، وأن كل شيء يختبزه الانسان في كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقررهِ الاعمال التي يأتيها في الوجود السابق ، وهي بمثابة كفارة .

والكرما معناها العمل . وفي هذه الحالة العمل الذي لا بد منه في الحياة . فهناك ناموس جامد للعلّة والمعلول ، للعمل والجزاء . وقد عرف الهنود الآريون - كما عرف العبرانيون فيما بعد - ان الجزاء في هذه الحياة الحاضرة لا ينسجم مع العمل ولا يتكافأ معه . لذلك ابتكر الهنود نظرية تناسخ الأرواح لحلّ هذا الاشكال . فجسد الانسان وأخلاقه ومولده وثروته واختباره وسعادته وآلامه - هذه كلها جماع الجزاء الذي تستحقه أعماله التي أتاها في وجود سابق ، صالحة كانت أو شريرة .

والأعمال التي يأتيها المرء في وجوده الحاضر ، صالحة كانت أو شريرة ، تهيه طوراً جديداً للتكفير والاستغفار . وكأن كل انسان مربوط الى عجلة

تدور دورات متتاليات لتقرير مصيره المحتوم في نهاية الأمر. وهو لا يقدر أن يوقف أو يبدل عملية هذا التطور والدوران المستمر ، ولا يمكن لأي انسان آخر أن يعينه في ذلك . ولناموس « تجوال الروح » الآن - أو على الأقل كان له من قبل - قيمة أدبية خاصة إذ ينطوي على مسئولية أدبية ، ولكنه يسلب الحياة معناها ويجردها من كل أمانيتها الاجتماعية . فكل فضيلة ، وكل تضحية للذات ، يجب أن تتجه الى خدمة النفس وخيرها دون سواها. ثم ان فكرته في النظام الادبي لا تعدو حد العقوبة أو المثوبة ، أما فكرة اقتداء النفس أو غفران آثامها فبعيدة عن هذا الناموس كل البعد . وكأن الله قد ربط كلاً منا الى عجلة دائرة تتناوبها الأفراح والأحزان ، ويبقى هو بعيداً عنها لا دخل له فيها .

ومن نقائص « الكرما » أيضاً أن الذاكرة لا تتخطى الشجرة القائمة بين وجود وآخر . وقد قيل ان هذا التعليم يعني « أن ما يزرعه الانسان إياه يحصد » ، ولكن من المتعذر علينا حقاً أن نرى القيمة الادبية في عقاب محل بحياة عن أعمال في حياة سابقة لها، إن لم يكن هناك شعور يقرن الحياتين معاً. أما الفكرة الثالثة ، أو التعليم الثالث ، فهي فكرة الانطلاق ، وهي تمثل محاولة النفس الافلات من دورات تجوالها وتنتاج أعمالها . فالحياة الشخصية في عرف القوم شرٌ وأسر وخداع. أما الحياة الحققة فهي استجلاء طلعة « براها » التي لا تُكتسب إلا بالاندماج فيه، كما تندمج قطرة الماء في المحيط الخضم . وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية والاندماج في الكائن الأسمى. وهذا الانطلاق لن يُكتسب بالأعمال، لان الاعمال الصالحة

تنتج ثمارها عن طريق الميلاد المتكرر ، كما تفعل الاعمال الشريرة تماماً . انما يجيء الانطلاق عن طريق الاستنارة الالهية . وقد أفسد هذا ما في « تجوال الروح » من القيمة الادبية . لان الاهمية معلقة على فضائل التصوف والزهد ، وليست على الاعمال الصالحة التي لا ينشأ عنها إلا ميلاد أفضل ووجود أرقى من الوجود السابق الذي كان عليه الانسان . وليس للأعمال الصالحة شأن في الانطلاق المروم . انما عن طريق التأمل والزهد تقف دورات الحياة ، ويبطل تطور الوجود ، ويتحد الانسان بالله .

مؤثرات البوذية

ثم نتقل الى نواح أخرى : فمن سنة ٥٠٠ الى سنة ٢٠٠ ق. م . قامت البوذية في بلاد الهند وترعرعت . ولعل نهوضها في تلك الفترة من الزمن يرجع الى تمرد القوم على إجراءات رجال الكهنوت وسوء استعمال سلطتهم ، ولو أن هذا ليس من الامور المؤكدة على وجه التحقيق . ولم يُعَنَ بوذا بالله ، انما عُني قبل كل شيء بطريق الحياة السوي . والواقع أن ما تضمنته الهندوسية من فضائل ، كدعة النفس وبساطة الحياة والتواضع ، ترجع في الاكثر الى مؤثرات بوذا . واليه أيضاً يرجع الفضل في إحترام حياة الحيوان ، فان فكرة الامتناع عن ذبح الأبقار وأكل لحمها التي يعتنقها كل هندوسي يرجع تاريخها على الأرجح الى ذلك العصر البعيد من الزمن .

ظهور فكرة التبسر

وقد كان للاحتكاك بين البوذية والهندوسية أثر آخر على الاخيرة .

فان ما انطوت عليه البوذية من الإلحاد والآداب الباردة لا يُرضي الانسان العادي ولا يشبع شيئاً من حاجات نفسه الدينية . وكان هذا مع المؤثرات الأخرى حافزاً للهندوسية لأن تُخرج فكرة « المظاهر المتجسدة للآلهة incarnations » . وهي فكرة لم تظهر في الوجود إلا حوالي سنة ٥٠٠ ق. م. أي بعد غزو البوذية لبلاد الهند. وقامت هذه الفكرة على أن Vishnu الاله الحافظ و Siva الاله المدمر — كونا بالاشتراك مع « براهما » ثالثاً بدت مظاهره المتجسدة في أوضاع شتى . وكان من نتيجة ذلك ان يُعبد Siva إله الدمار تحت اسمه وأسماء أخرى بالاشتراك مع زوجته Kali . وأكثر عبادة هذا الاله قائمة على البطر والفسق . ومع ذلك فقد نشأت في جنوب بلاد الهند جماعة عمدت الى كتابة مؤلفات خشوعية دينية حول اسم Siva هي أنبل ما أخرجته بلاد الهند من الكتب الدينية. أما الاله Vishnu فله مظاهر متجسدة كثيرة : أهمها في Rama و Krishna — وقد جاءت قصة Rama وزوجته في إحدى أقاصيص الهند الشعرية العريقة في القدم . وأما المظهر المتجسد الآخر Krishna فقد جاءت روايته في قصة شعرية أخرى يعجب بها الهندوس أيما إعجاب ، ويعدونها « جنة رائعة قد نضجت ثمارها اللذيذة وأينعت أزهارها الفيحة ، ترويها ينابيع دائمة على مدار السنة » .

وفي أواخر تلك الفترة من الزمن ظهرت مؤلفات اصطبغ فيها « كرشنا » بألوان مختلفة . وهو في تلك المؤلفات المظهر المتجسد للشهوة . وكان لأقاصيص غرامه أعمق الأثر في إفساد حياة الملايين في بلاد الهند. وهذا مثل على فساد فكرة التجسد عند القوم. فقد كانت سلاحاً خطراً، وحول أبطالها ومظاهرها

صنّف الناس أقاصيص شتى صالحة وشريرة على السواء . أما الحق التاريخي فقلما أعاره القوم شيئاً من عنايتهم . وكان من جراء ذلك أن اندمج في سجلّ الآلهة عدد لا حصر له من صغار الآلهة . تتفاوت أقدارهم الادبية . فأخذت الهندوسية في التدهور والانحطاط .

وفي الهندوسية الحديثة نهضتان بارزتان . أولهما تعاليم (Vedanta) . فانه في الخمس مائة سنة ما بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ ب . م . لم يُعرف إلا القليل عن تاريخ الهندوسية . ولكن ظهر في القرن التاسع زعيم ديني يدعى « سنكاراشا » ، فنادى بما ظنه المبادئ الطاهرة النقية المنطوية تحت الأناشيد الدينية التي تضمنتها كتبهم المقدسة Veda ، وأطلق على نظامه اسم Vedanta . وهي الفلسفة التي يشغف بها الهندي المثقف في هذا العصر . وبراها في نظر هذا الزعيم هو الحق ، والانسف المفردة واحدة فيه . فاذا ما فرغت سلسلة التوالد، وأبطلت الروح تجوالها من وجود الى آخر، اندمجت في براها وصارت واحداً فيه . ويضيف الزعيم الى ذلك أن الكون ليس حقيقة غامضة مبهمة وحسب . بل هو وهم وخداع وطيف زائل . وأنفس الافراد مندمجة في الحقيقة مع براها . وهذا الطيف الزائل ، أي العالم ، هو الحجاب الوحيد الذي يحول دون تحقيق هذا الاندماج وتوحيد الذاتية . والخلاص يجيء عن طريق هدم هذا الحجاب، وتبديد هذا الخداع المضلل والطيف الزائل . وقد تملكّت هذه الفلسفة من عقل الهندوسي واحتلت هذه الفكرة - فكرة وهمية الكون وزواله - مكانة سامية في تفكير الهنود بحيث أضحت تسير جنباً الى جنب مع التعاليم الثلاثة الاخرى وهي : تجوال الروح - وتأثير الاعمال - وانطلاق النفس أخيراً .

وأما النهضة الثانية فهي فلسفة الخشوع والتعبد Bhakti التي ظهرت في الفترة ما بين ١٤٠٠ و ١٨٠٠ ب . م . وتقترن بأسماء ثلاثة من كبار الزعماء الذين أسسوا مذاهب السكتيين وغيرهم . وهم قد أدخلوا الى الفلسفة الهندوسية التي تدين بكائن اسمى غير شخصي ، لا ذات مستقلة له - فكرة الاله الشخصي الذي يليق له التعبد والخشوع . ولعلمهم تأثروا في ذلك بالآراء الإسلامية التي كانت قد ظهرت في الهند في ذلك العصر . ونبغ بين دعاة هذه الفلسفة قديسون أظهروهم « تولسي داس » الذي عاش في القرن السادس عشر ، والذي نقل الأقاصيص الدينية المقدسة الى لغة عامة الشعب ، فتناولتها العامة وراحت تنشدتها في قرى الهند ، وتتلوها في كل مكان ، وتمثلها في الأعياد والمواسم . وكان أولئك القديسون ، بما أدخلوا على الديانة الهندوسية من فكرة الاله الشخصي الذي يليق له التعبد والخشوع ، اسمى من مثأوا فكرة الايمان بالله في بلاد الهند ، وهم ينتمون الى طبقات مختلفة ، وكثيرون منهم من عامة الشعب ، فينبهم النساجون وصانعو الفخار الذين خلوا من اللواهب سوى الالهام الديني . وكان بعضهم من المصلحين حقاً الذين نبذوا الاوثان وفوارق الطبقات ومجرد الطقوس الظاهرية ، وأحسوا بوجود الله احساساً غريباً . وهم قد آمنوا بالله سام ولو أنهم في بعض الأحيان قد أخرجوا افكاراً غشيمة فجئة ، وعزوا بعض الافكار الروحية المتعلقة بالله الى أشباح ورموز غير لائقة .

ولقد أصرّ أولئك القديسون المتعبدون Bhakti على النعمة التي قد تكون تمهيداً لتعليم أعمق وأرقى . على انه ينبغي ان نعلم ان الخلاص أو « الاطلاق » الذي تكلم عنه القديسون والحكماء - حتى في دين جماعة ال Bhakti -

انصرف فقط الى الخلاص من سحر العالم وغوايته ، ومن تعذيب دورات الولادة المتكررة ، ومن التجوال الذي لا نهاية له من وجود الى وجود بعده.

دعوة المنبوذين

ومن المؤلم حقاً انه في كل هذه الأدوار التي آخضت الافكار والممارسات الهندوسية لم يكن للمنبوذين Outcastes ثمة نصيب . وقد يكون مثاراً للنزاع أن نعدّهم طائفة من طوائف الهندوسيين . فانه لا تشابه بين دينهم وبين العقائد التي شرحناها ، فدينهم في مجموعها أشبه بعبادة الارواح التي اعتصمت بها الاقوام الفطرية الساذجة . وأعظم الآلهة في قرية المنبوذين ليس « سيفاً Siva » ولا « فشنو Vishnu » ، بل ربما كومة من الآجر تمثل أم القرية أو شيطانها ، الذي يمنح الخصب للعواقر ، ويحمي المحصول من الآفات ، ويرعى القرية برعايته وعنايته . وقد يكون للمنبوذ فكرة غامضة مبهمة عن كائن سام عظيم ، ولكنه الى جانب ذلك يؤمن بجملة من الأرواح الشريرة . وحالته الاجتماعية الدينية في أحط الدرجات ، والهندوسية المحافظة لا تُعنى به شيئاً .

جهود المصلحين

وفي السنوات الاخيرة بُذلت الجهود المتوالية لرفع شأن أولئك المنبوذين وتحسين حالتهم السيئة . ونهضت جماعات في بلاد الهند للاصلاح ارتضت قبول المنبوذين في عضويتها رغبة في تطهير الهندوسية من هذه اللوثة اللاصقة بها، والقضاء على فكرة التمييز بين الطبقات .

وبين تلك الجماعات Brahma Samaj وهي طائفة تؤمن بالله . ووجهة نظرها في الله وفي يسوع المسيح أشبه بوجهة نظر من نسميهم « موحدين Unitarians » . وهي تكاد تكون منفصلة عن الهندوسية الأصلية ، قليلة العدد، يعوزها العزم والقوة، ولكنها أدت بعض الخدمات النافعة الى طوائف المنبوذين. وأمثال هذه جماعات أخرى نهضت لمكافحة هذه السيئة الاجتماعية، وهي حين تصدر عن الهندوسيين المحافظين، يكون الباعث اليها الحسد والغيرة من الرسائل المسيحية، التي تعمل ناشطة لرفع شأن أولئك المنبوذين واكتسابهم الى أحضان المسيحية التي تقدر الشخصية البشرية مهما كانت وضعيتها. ومع ان الضمير الهندوسي المثقف قد أدرك ما في نظام الطبقات من سوء وشناعة، فانه لم يفعل حتى الآن شيئاً جدياً للخروج عن تلك التقاليد الجامدة التي أحكم المحافظون الرجعيون حياكتها حول أولئك المنبوذين التاعسين الذين يبلغ عددهم خمسين مليوناً .

الخلاصة

ونستخلص من هذا البحث ان الديانة الهندوسية تشمل طرائق دينية كثيرة منفصلة بعضها عن بعض ، وهي ذات معان متعددة مختلفة . ويمكن تلخيصها فيما يلي :

يُحسب الهندوسي هندوسياً متى ولد في طبقة من الطبقات المعروفة وحافظ على تقاليدها وقواعدها، ولو ان كثيرين من المثقفين يعتقدون على هذه القواعد الوضعية ويتملصون منها . ويؤمن الهندوسي بنظام الطبقات، ويحترم أسفاره

المقدسة Vedas ويوقر البراهمة . ثم يحسب البقرة مقدسة ، وتتسلط على عقله معتقدات تناسخ الارواح ، وانطلاق النفس أخيراً من قيود هذا التجوال وآثار أعماله صالحة كانت أو شريرة ، ثم يميل به الرأي الى مذهب الحلول الالهي في الطبيعة. وهو ان كان مثقفاً مهذباً فهو ينكر تعدد الآلهة ولا يؤمن بها. وان كان وطنياً متحمساً ومن رجال أحزاب الاصلاح فهو يرتاب كثيراً في صحة نظام الطبقات. وان كان برهيمياً، فهو يؤمن بالاوزاع الأولى للديانة الهندوسية ويحفظ الطقوس والمراسم القديمة، ويعبد الاله « سيفا » أو الاله « فشنو » ، ويدرس الاسفار المقدسة أو بعض المذاهب الفلسفية الهندوسية. وأما ان كان قروياً عادياً ، فيحفظ الطقوس ويعبد « راما » أو « كرشنا » أو « سيفا » أو الاله القرد أو زوجة الاله سيفا . وان كان منبوذاً فالله شيطان القرية .

وللهندوسية أوضاع شتى تتفاوت بين فلسفة الحلول الالهي في الطبيعة، ثم تأخذ في الانحدار حتى تصل الى عبادة الأرواح الشريرة . ومن الصعب جداً التمييز بين هذه الأوضاع المتفاوتة. ولعلنا نقرب الى الصواب إذا قلنا ان أقوى العوامل تأثيراً في الهندوسيين من أعلى الطبقات الى أدناها هي :

- (١) - نظام الطبقات .
- (٢) الفكرة بأن الله هو الحق الوحيد .
- (٣) الفكرة بأن العالم وهم وخداغ وتضليل .
- (٤) ثم الفكرة المثلثة عن الاعمال (الكارما)، وتناسخ الارواح، وانطلاق النفس واندماجها في الكائن الاسمى .

أية فكرة عن الله تسبع قلب الهندوسي؟

وبعدُ ، ما الرسالة المسيحية لأمثال هؤلاء القوم؟

إنها قبل كل شيء تحمل اليهم رسالة الله. لأنه وحده دون سواه مستطيع أن يشبع قلب الهندوسي التائق . وقد عرفنا من بحثنا في طرائق التفكير الهندوسية عن الله أن للقوم اتجاهين . الأول التفكير في الله إلهاً مجرداً عن الشخصية. هو روح العالم، وهو الحق الوحيد الجاثم وراء خداع وبطلان هذا الوجود العالمي والاتجاه الثاني تصوّر الله في أشباح متجسدة مثل رام وكرشنا وما أشبه . فالأتجاه الأول يحتفظ بسمو الله وصفاته الجامعة، ولكنه لا يعطي القوم إلهاً يرفعون إليه الصلاة . والاتجاه الثاني يشبع رغبات الإنسان من حيث تعيين صفات الله وتحديداتها، ولكنه يفقد معالم صفات الله الجامعة المطلقة. ولهذين الاتجاهين آثار ظاهرة في حياة الهنود كما نشاهدتها في هذا العصر . والذي يرومه الهندوسي وتتوق إليه نفسه الجائعة لن يجده إلا في الله المعلن في المسيح . إذ تحمل إليه الرسالة المسيحية إلهاً جامعاً سامياً ، هو صانع الكون والحال فيه . وهو فوق ذلك معلن في التاريخ البشري ، وفي وجه بشري — إلهاً هو المحبة .

الغفران

ويجيء الإيمان الصحيح في الله بشيء آخر تفتقر إليه بلاد الهند، وهو الشعور بالخطية والحاجة إلى الغفران. ولا يعوز بلاد الهند الحنين إلى الاقتداء، ولكنه عندهم اقتداء من ضيقات هذا العالم الحاضر وويلاته، اقتداء من خداع

الحياة وأباطيلها التي تحجب عن الأنظار وجه الكائن الاسمى . فهي لا تروم
الفداء من بطش الخطية وسطوتها، ولن يمكنها أن تفعل ذلك . وهي تترنح بين
إله مجرد عن الشخصية ، وآلهة محدودة القوى ناقصة في الكمالات الأدبية .
والذي تفتقر اليه الهند رؤيا الله القدوس ، الذي تعلو قدامته فوق كل المعايير
البشرية . وقد تأصلت في نفسها بفضل عقيدة « الكارما » الفكرة بأن كل
عمل يأتيه الفرد ينتج أثره ، وان الخطية تنال عقابها بموجب ناموس جامد لا
هودة فيه . ولم تهض قط الى إدراك فكرة الغفران، لا الغفران الذي يتجاوز
عن الشر في تراخ وإحساس بليد ، بل الغفران الذي يحمل الخطايا الى قلب
« الله » ذاته .

مبدأ الأخاء

ومن الهبات التي يمكن أن تفوز بها الهند من المسيحية روح الأخاء .
وهين أن نقول إن الغرب لا يبدي للملا شيثاً من آثار المسيحية من هذه
الناحية . وعلى الرغم من هذا فانا لا ننسى أن المسيحية قد ألغت الرق . وحيثما
تذهب المسيحية ويكون الايمان بالمسيح حقاً ، وفعلاً ، لا يسع أتباعها إلا أن
يشعروا أن المسيح قد جعل الكل واحداً . ولن يقول مكابر ان في المسيحية
شيئاً من هذا التمييز بين الطبقات . لان مثل هذا النظام يدعو الى أخاء محدود
بقيود وأحكام ، يقتصر على أفراد الطبقة الواحدة أو الطائفة الواحدة كما تفعل
بعض الأديان الاخرى ، أما في المسيحية فالأخاء رابطة جامعة شاملة . ولهذا
نرى المنبوذين الانجاس في بلاد الهند يهرعون الى الكنيسة المسيحية جماعات

وزرافات بحيث يتعذر على المرسلين هناك تلبية كل الطلبات. والمصلحون من الهندوسيين يعترفون بهذا الفضل للمسيحية . فقد قال « رام موهن روي » الشهير ، وهو صاحب الفضل في إبطال عادة إحراق الارملة مع بعلها المتوفي : « لقد تبين لي من البحوث الطويلة الدقيقة في الاديان أن تعاليم المسيح أكثر انطباقاً على المبادئ الادبية ، وأكثر ملائمة للخلائق العاقلة من أي تعاليم أخرى » .

الدين العملي

وأخيراً نشير الى عنصر له شأنه في رسالة المسيحية بالنسبة للهند . ذلك أن الايمان بالمسيح ينتشل الهند من ربة التشاؤم من العالم الحاضر ويعينها على أن تظهر بقداسة وخلاص عمليين بكل معنى الكلمة . ولسنا ننكر أن الهند تدرك حقيقة العالم الروحي، ولكنها استنامت الى خلاص هو الانطلاق من عالم مضمّن مُنْهَك . وليس ملكوت الله في نظرهم نتيجة جهود الانسان وأعماله ، فلا شأن للهندي بالمبادئ الدينية ذات الصبغة العملية . أما الحياة في نظر المسيحي فهي الميدان الذي تكمل فيه إرادة الله ، وممالك الارض ستكون يوماً ملك الله ومسيحه: وفي التلعة المسيحية جهد فائز، وقوة نابضة، وانتظار عملي . وسيأتي يوم يجد فيه التائقون الى الانطلاق خلاص نفوسهم الحقيقي في المسيح ، وفي خدمته في عالم البشر .

الكنفوشية

وغيرها من أديان بلاد الصين

يختلف شعب الصين اختلافاً بيناً عن شعب الهند . فالهندي يمتاز بالانغماس في الاشياء الروحية، والايقان في طبيعة العالم الزائلة المتقلبة. والتفكير العميق في الله. أما الصيني فبحسب طبيعته لا يهتم إلا قليلاً في هذه الشئون. وفي بلاد الصين يقطن شعب بقي مدى الأجيال في عزلة عن العالم ، من فجر التاريخ الى هذا العصر الحديث ، وكان لهذه العزلة أثرها في تكوين أخلاق قومية بارزة وشعب ذي طبع عملي قليل المبالاة ، فخور بتاريخه الاجتماعي والقومي ونظمه الخاصة . وقد كانت الصين في فنون الحضارة في مقدمة أمم العالم . والآن ، وقد شهدت مؤخراً أثار علوم الغرب وثقافته بعد أن تخطت حدودها القديمة، فإنها تدأب بعزم متوثب وهمة فتيّة في اقتباس تلك القوة والمؤثرات التي اعتز بها الغرب. والذين يعيشون من الأجانب في ربوع تلك البلاد من مرسلين وموظفين إداريين وتجار يعجبون أيما إعجاب بما يرونه من مقدرة ومثانة أخلاق ذلك الشعب العظيم . ولا يقل إعجابهم هذا بسبب ما يشهدون من القوضى والاضطراب. اللذين أعاقا تقدم البلاد في اكتمال حقها من الديمقراطية السياسية.

الدين في بلاد الصين

ما دين الصين ؟ ليست الاجابة على هذا السؤال هينة. ففي تلك البلاد أديان ثلاثة الكنفوشية والبوذية والتاوزمية . وليس مستطاعاً أن نقول ان بعض أهلها كنفوشيون والبعض الآخر بوذيون وغيرهم تاوزميون ، كما نقول مثلاً ان سكان الهند بعضهم هندوسيون و بعضهم مسلمون، ذلك لان الصيني قد يكون كنفوشياً وبوذاً وتاوزمياً في وقت واحد ! يضاف الى هذا ان الكنفوشية هي في الحقيقة اسم على نظام ديني قبل أن يظهر كنفوشيوس في الوجود بأجيال كثيرة. وليس للتاوزمية علاقة بالفلسفة التي نادى بها مؤسسها. والطريقة الممكنة التي نختطها الآن هي أن نصف كلاً من هذه الأديان وصفاً موجزاً ، ثم نستجمع العناصر الأصلية في الآراء الدينية العملية التي يعتنقها الصيني العادي .

كنفوشيوس

هو مفتاح الدين الصيني . والواقع انه لم يتكر الكثير مما يُنسب اليه ، وهو ليس قوة دينية شخصية . وإنما قد تمثلت في حياته وكتابات وجهته النظر الصينية العادية في الحياة والدين . كنفوشيوس هو المثال الذي يحتذيه الرجل الصيني في أسمى أوضاعه . وله في نفوس القوم مكانة التوقير والاحترام ويتخذونه نموذجهم الكامل .

ولد سنة ٥٥١ ق . م . وكان أبوه ضابطاً حريباً ممتازاً من سلالة عريقة توفى ولماً يبلغ ولده الثالثة من العمر، وخلف أسرته في فقر. وقد انصرف الغلام

كنفوشيوس منذ خدائته الى الدرس والبحث، وخصوصاً درس آداب القدماء. ولما بلغ أشده عُين في وظيفة حكومية وأخذ يتقلب في المناصب بكفاية نادرة. وكان في خلال تلك السنوات يفكر تفكيراً عميقاً في أحوال بلاده، ويكون فلسفته الاجتماعية والسياسية. وفي نهاية الأمر هجر وظيفته الحكومية وانقطع الى وظيفة التعليم. فأقبل نفر من الشباب من كل رقع وطنه وجلسوا عند قدميه لينهلوا من معين حكيمته. ولم يلبث طويلاً حتى ذاع صيته وعلا شأنه. وكان تلاميذه من العلماء المبرزين ونظروا الى كنفوشيوس نظرة اكبار واحترام تكاد تفوق عبادة الابطال الاقذاذ. وفي هذا وحده دليل على علو كعبه في التعليم والحكمة. وبلغ صيته مسمع الملك والحاكم في «شو»، فدعاه الى مجلسه فلَبَّى دعوته مغبوطاً لما كان للأسرة المالكة من الكرامة والحب في أعين الشعب. ويقال انه عند زيارته لعاصمة ملكه التقى بالفيلسوف «لاوتز»، فهره هذا على اعتداده بنفسه ودعواه أن في طوقه اصلاح العالم بتعاليمه. وبعد أن قضى سنوات في تعليم تلاميذه، والدرس والبحث، وتأليف أسفار في الآداب القومية القديمة، عيّنه أحد النبلاء ويدعى «لو» في وظيفة رئيس القضاة بالمدينة. ثم انتقل منها الى رئيس الوزراء، على أن يباح له تنفيذ آراءه في مقاطعة لو. ويقول تلاميذه انه أصاب في ذلك فوزاً مبيناً، « فالجرائم اختفت. وكان الشيء اذا سقط في الطريق لا يلتقطه أحد. وصنعت صناديق الموتى من نخانة عادية. وبطل تمييز القبور باقامة المتاريس عليها. وحددت أسعار واحدة في الاسواق». ولكن منافسيه أوقعوا بينه وبين الحاكم وراحوا يتزلفون الى هذا الحاكم بتقديم الهدايا من نساء جميلات وعمائر ضخمة، فحولوا

عقله وفكره عن الأخذ بنصائح كنفوشيوس الحكيم، فاضطر هذا الى اعتزال
وظيفته . ولم يوضع قط فيما بعد في موضع القوة والنفوذ . وما يذكر له بالفخر
أنه لم يسع الى ذلك يوماً ولم يحد قيدا أنملة عما اعتقده حقاً ليرضي الشعور العام،
فكرس بقية حياته في تعليم تلاميذه ودراسته الآداب القديمة التي أكل
أسفارها قبيل أواخر حياته، وخلفها تراثاً مذكوراً لبلاده. وتوفي سنة ٤٧٨ ق.م.

عبادة شنغتاى

وقبل الخوض في نظم كنفوشيوس لا ندحة لنا عن الرجوع أولاً الى
دين بلاد الصين قبل عصره : كان دينهم قائماً على ثلاثة أوضاع : عبادة
شنغتاى الاله الاسمى ، وعبادة الاسلاف ، وعبادة الارواح . ففي عبادة
« شنغتاى » نرى مثلاً روحية سامية. والى القارىء بعض العبارات المقتبسة
عن الصلوات التي كانوا يرفعونها الى « شنغتاى » ربهم في فصل الصيف
وفصل الشتاء، حين كان يتقدم اليه الامبراطور كرئيس كهنة نيابة عن الشعب:
« اليك أيها الصانع العظيم يتجه فكري . . وأنا عبدك لست إلا قصبة
مرضوضة ونبته هزيلة . قلبي قلب نملة حقيرة . ومع ذلك فقد نلت لديك
شرفاً وحظوة إذ جعلتني حاكماً لهذه الامبراطورية. وها أنا اعترف بجہلي وعى
قلبي . وأخشى أن اكون غير أهل لهذه النعم الوافرة . فهبني أن أراعي في
وقار الشرائع والأحكام ، باذلاً جهدي ، على الرغم من صغر شأني ، لأن
أقوم بواجبي بولاء واخلاص . وعن بعد أتطلع الى مقامك السماوي ، فتعال
في مركبتك الفاخرة الى هذا المذبح. وها أنا خادمك أعفر وجهي في التراب

متوقفاً جزيل نعمتك . . . لترضى بأن تقبل تقدماتنا ، وترمقنا بعينيك حين نعبدك ، ياذا الصلاح غير المتناهي .

وهذا الضرب من العبادة يرجع تاريخها الى العصور الأولى في التاريخ الصيني . فمنذ فجر التاريخ كان وراء جميع الممارسات والاجراءات الدينية التي مارسها الصينيون ، تلك العقيدة العظمى عن إله سام عظيم ، عقيدة أحييت في بعض الاحايين بسجف من الغموض والابهام ، ولم تظهر ثمارها في الحياة القومية ولكنها لم تبرح قط عن الاذهان . ويطلق على « شنغتي » هذا (أو الاله المتعالي) في مصطلحات الآداب القديمة لقب « تيان » أو السماء . وهذا هو اللقب الذي شغف به كنفوشيوس نفسه ، وجرى على التحدث به كثيراً . وخلق بنا أن نغير التفاتاً الى طريقة الخطاب التي جرى عليها كنفوشيوس لاله تنقصه عناصر الشخصية . ولعل نفوذه هو صاحب الفضل في بقاء فكرة الاله العلي المتسامي مجرداً عن الشخصية .

وكان للامبراطور وحده حق عبادة شنغتي — نائباً عن شعبه — فأدى هذا ايضاً بطبيعة الحال الى ابعاد فكرة الالهية السامية عن محيط العبادة العملية .

عبادة الأرواح

لم تقب عبادة الأرواح قط عن بلاد الصين ولم تنفصل أبداً عن أسمى ما فيها من تعبد . فالى جانب عبادة الامبراطور للاله شنغتي ، ترى لوحات تمثل الامبراطرة السابقتين ، ولوحات غيرها تمثل الشمس والقمر والنجوم والغيوم والأمطار والرياح والرعود ، موضوعة الى جانب لوحة الاله العظيم

وفي مقام منخفض عنها. وان في قبول آلهة أخرى على هذا النحو، ولو كانت خاضعة للاله الاسمي وأقل منه شأنًا، لانحداراً الى الوثنية. والواقع ان الكنفوشية منذ ان توفي زعيمها مالت الى ضروب شتى من الوثنية، ولو انها في الظاهر وبالاسم فقط تعيب الوثنية وتنعيها. والى جانب الأرواح التي ذكرنا ظهر عدد غفير من الآلهة ذكوراً وأنثاءً ومجموعة أخرى من مبتكرات وأفانين عامة الشعب.

عبادة الاسلاف

وأهم من عبادة الارواح عبادة الاسلاف. يقول كثيرون ان هذا هو الدين الحقيقي لشعب الصين. ويرجع تاريخه الى العصور الخوالي، وما زال شائعاً مألوفاً حتى هذا العصر. وليس يحرص الصيني على شيء حرصه على هذه العبادة، فأنت قد يُباح لك أن توجه اللام الى أي شيء في الصين. أما أن تمس عبادة الاسلاف بسوء، فهذا مالا يرضاه الصيني ويصدك عنه في جفاء. والارجح ان هذه العبادة بدأت أولاً ضرباً من ضروب التكريم للميت بعد الوفاة، ثم استحوالت الى عبادة الابطال الحكماء من رجال الشعب. وأخذت العادة تنتشر بين القبائل والأُسَر تغذوها روابط الأسرة في بلاد الصين، وهي قوية بطبيعتها في تلك البلاد، حتى أصبح كل الاسلاف موضع التوقير والعبادة من الجميع على السواء.

واللوحة المستعملة في عبادة الاسلاف هي عادة «لوحة صغيرة من الخشب يبلغ علوها ثمانى بوصات وعرضها بضع بوصات ينقش على وجهها اسم الشخص

الذي تمثله». وتحفظ هذه اللوحة في دار الأسرة مدى حياة جيل أو اثنين من أجيال الأحياء عقب انتقال المتوفي، ثم تنقل بعد ذلك إلى هيكل أسلاف القبيلة أو الأسرة. ومن حين إلى آخر تقدم إلى هذه اللوحة التقدّمات، وخصوصاً في عيد ميلاد المتوفي أو يوم ذكرى موته من كل سنة. ويقول الجيل النابت في معرض الحديث عن المتوفين: «آباءنا وأمهاتنا» أو «أجدادنا وجداتنا». ولهذا النظام أثر بارز في تقوية نفوذ الأسرة أو القبيلة على الفرد بحيث يعسر عليه جداً الخروج على التقاليد والعادات المرعية. وأنه ليصعب على المرء أن يدرك المدى الذي يذهب إليه الصيني في عبادة أرواح أسلافه وما تنطوي عليه تلك العبادة من عطف وولاء. وفي أغلب الأحيان تمزج هذه العبادة بكثير من العطف والحب الخالص للمتوفين، وفي أحيان يخالفها الخوف مما تفعله تلك الأرواح لو لم يعبدوها اللاحقون، وفي أحيان أخرى ليست إلا مجرد طقوس وممارسات وضعية جرى عليها العرف والعادة.

هذه هي الخيوط الثلاثة التي يتكوّن منها نسيج الدين في بلاد الصين: عبادة شغنتاي، وعبادة الأسلاف، وعبادة الأرواح.

المعرفات الخمس

يقال إن كلمة واحدة - يشار إليها في اللغة الصينية بحرف واحد - هي التي تلخص كل تعاليم كنفوشيوس، وهي لفظة «التبادل»، إذ يقول إن جوهر الحياة الصالحة، للفرد وللأمة، يقوم على حسن أداء الفرد لواجبه ورعايته للروابط التي تربط الناس بعضهم ببعض. وعندهم علاقات رئيسية خمس: علاقة

الأمير بالرعية ، وعلاقة الأب بالابن ، وعلاقة الأخ الأكبر بأخيه الأصغر ، وعلاقة الزوج بزوجه ، وعلاقة الصديق بصديقه . فان روعيت كل هذه العلاقات حسن حال الدولة .

التقوى البنوية

على انهم يعلقون أهمية كبرى على الرابطة البنوية، وهي في بلاد الصين أشد القوى الادبية، فان الرجل قد يذبح ابنه ولا يُعتبر في فعلته إلا متطرفاً في استخدام الحقوق الابوية. أما إذ قتل الابن أباه ، فهذه جريمة فظيعة يُعاقب عليها القانون بأقصى صنوف التعذيب . ويقال بالاجماع ان التشدد في رعاية هذه الرابطة كان لخير البلاد ، انما هذه الفضيلة في نظرنا ذات ناحية واحدة ، وليس ما يقابلها في واجبات الآباء نحو أبنائهم . وقد يفرطون في رعاية هذه الحقوق افراطاً سخيفاً ، مثال ذلك ما روي عن أحدهم من أنه « كان يخشى أن يدرك أبواه حقيقة تقدمه في الايام وبلوغه سن السبعين فيرهبها شيخوخته . لذلك كان يرتدي ثياب الاطفال ، ويطفر أمام والديه كصبي صغير » .

الدولة

وقد دارت تعاليم كنفوشيوس الادبية في أساسها حول الدولة وعلاقة أبنائها بها ، والصفات التي ينبغي أن تتوافر في مليكها وحاكمها . فاذا صلح حال الامبراطور صلح حال الدولة والشعب . ولقد استمد مبادئه الادبية ومُوحياته من تاريخ السلف . وأراد أن يوطد حياة الأمة على تلك المبادئ

التي أثبت التاريخ الماضي صلاحيتها . أما عن ضمير الفرد وعلاقته بالله ، فلم يقل إلا القليل .

وكان اهتمام كنفوشيوس متجهاً في أصوله الى علاقة الانسان بالانسان . أما عن العلاقة بين الله والانسان فالظاهر أنه لم يعبأ بها كثيراً . وسلم بعبادة الآله « شنغتي » القديمة ، وكذا عبادة الاسلاف ، وأباح شيئاً من عبادة الارواح لغرض الثقافة الرسمية العامة . ولكن عقله الكبير المفكر أمتهن هذه العبادة جملة واحدة ، وخیل اليه أن عبادة القوى غير المنظورة من الامور غير الضرورية إذا قيس بمهام الانسان الاخرى . ومن أقواله : « لم تقدر حتى الآن أن تؤدي واجباتنا نحو الانسان ، فكيف تؤديها نحو الارواح ؟ » . أما عن الحياة بعد الموت فأبى أن يصرح بشيء . والحق أننا مسوقون الى الاعجاب باختلاص ذلك الرجل ونزاهة عقله ، لانه يأبى الخوض في أمور لا يدرىها . وبيننا نأسف لان آدابه « لم تتأثر بالعاطفة » ، فأننا نقر أن موقفه « اللا أدري » كان بمثابة احتجاج ضد عبادة الارواح الفاسدة ، ولعب دوراً نافعاً في تاريخ أمته الديني .

تعاليم الروينية

ولقد بلغ كنفوشيوس في تعاليمه مستوى اخلاقياً رفيعاً كان له أبلغ الأثر في حياة بلاد الصين والى القارىء بعض أقواله :
« أليس رجلاً فاضلاً ذاك الذي لا يشعر بانزعاج حين يفض الناس الطرف عنه ؟ »

« اجعلوا الامانة والاخلاص من المبادئ الاولى »
« ان الرجل الفاضل في كل شيء يحسب البر من الضرورات »
وقد وضع القاعدة الذهبية في صيغة السلب .
« لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعل بك »

وحين سمع أن « لاوتز » قال : « جازوا الشر بالخير » - حار في أمره
وقال : « جازوا الشر بالخير ! إذا بماذا نجازي الخير ؟ جازوا الاذى بالعدل ،
والخير بالخير » . وربما كان هذا نقصاً أدبياً في نظامه . فان فضائله هي فضائل
الانسان الطبيعي في أحسن أوضاعه . أما أن تجازي الشر بالخير ، وهو شأن
الله معنا ، فظنه مقياساً أدبياً فوق طاقته .

ثم أن أخلاقياته ضعيفة أيضاً من ناحية الخطية البشرية . فهو يؤمن أن
طبيعة الانسان في أصلها سالحة ، ولو أتبع موحياها قادتة الى الصلاح ، أما الخطأ
فيعزوه الى الجهل . وهو لم يدرك صراع بولس مع الجسد الذي تمثل في صرخات
المجرمين من البشر مدى الاجيال : « الذي لا أريده هذا أفعله » . والظاهر
أن زميله الحكيم الصيني الآخر « لاوتز » تعمق الى أبعد من هذا في الحياة
البشرية ، ولو أنه لم يكن ذا أثر كبير في بلاده .

أهمية كتب الادب القديمة

ولقد أفرز كنفوشيوس شطراً كبيراً من حياته في تنقيح كتب الأدب .
الصينية القديمة « الكلاسيكيات » . وبعد موته صُنفت المؤلفات عنه وعن
تعاليمه . وليس هيناً علينا أن نقدّر خطورة هذه الكتب في تاريخ الصين .

فان قلنا انها كتب الكنفوشية المقدسة كان قولنا حقاً، ولكنه بعض الحق ليس إلا .

ويحول ضيق المقام هنا دون التبسط في وصف التعليم الصيني . على أن الشعب الصيني يبرز كل شعوب الارض في شعوره بضرورة التعليم ، وفي تكريمه العلم والعلماء . والعامّة لا تعرف كثيراً عن الكتب ، ولكن تعرف منها أقوالاً ماثورة جرت مجرى الامثال، ويعلمون أنه لو أتيح لولد أن ينبغ في علوم الادب القديمة، فان كل المناصب العليا في البلاد قد تسعى اليه . وقد أدّت الاصلاحات التعليمية الحديثة الى تغيير الموقف بالنسبة لكتب الأدب القديمة ، ولكنها لم تبدل موقف الصيني حيال التعلم .

مطلة المرأة

وأما مكانة المرأة في الصين فقد كانت دائماً منحطة وضعيفة . وفي قصيدة شعرية قديمة يُروى عن بطل وُلد له بنون فاضطجعوا على وسائل ناعمة . . . وُولد له بنات فنمنَ على الارض الوعرة ! وخلقت المرأة في عرفهم ، وهي من الجنس الأدنى ، للاعمال الحقيرة الدنيئة . وما عادة حزم الارجل بأحذية من حديد منذ الصغر - التي أخذت تزول الآن بفضل المؤثرات الغربية - إلا أثر من آثار امتهانهم للمرأة . وكنفوشيوس لم يعمل شيئاً لرفع المستوى الصيني ، لانه في نواح كثيرة أثر البقاء في المستوى العادي المألوف .

التأويلية

قلنا ان الكنفوشية هي اكثر الأديان ذبوعاً في بلاد الصين . وهناك

دين آخر يدعى « التاوزمية » نسبة الى مؤسسه « لاوتز » . ويذكرنا هذا ببوذا من بعض الوجوه . فقد ولد حوالي سنة ٦٠٤ ق.م . فكأنه كان معاصراً لكنفوشيوس واكبر منه سناً . كان « لاوتز » فيلسوفاً ، بينما كان « كنفوشيوس » سياسياً ومصلحاً أدبياً . وأودع نظامه وتعاليمه في سفر خاص .

وكان في دين « لاوتز » هذا فكرة أساسية عبّر عنها بكلمة (Tao) وهي كلمة ذهب العلماء مذاهب شتى في ترجمتها . وإننا لنذكر أن الفكر اليوناني قبل عصر المسيح نشط للتعبير عن المبدأ المسيطر في الكون فقال بعضهم انه « العقل » ، وذهب آخرون الى أنه « الطبيعة » . ثم نشط اليهود أيضاً في ذلك العصر للتعبير عن مظهر الله في التاريخ فقالوا هو « الحكمة » ، بينما اصطلح اليونان بكلمة (Logos) للافصاح عن المبدأ النهائي الكلّي لكل الاشياء . وقد شغف « لاوتز » الذي عاش قبل هؤلاء وأولئك بنفس هذا التفكير النظري حول المبدأ المسيطر في الكون الذي أطلق عليه (Tao) .

ولقد ترجم العلماء هذه الكلمة الصينية فقالوا : العقل ، المبدأ ، الطريق ، الطبيعة - وهي تشبه « الحكمة Wisdom » العبرانية و « الكلمة Logos » اليونانية ، وان اختلفت عنهما . وهي تعبّر عن المبدأ فيما وراء عالم الطبيعة ، كما هو معان في الطبيعة وفي الجنس البشري .

والظاهر أن المثل الأعلى في تعاليمه هو أن يسمح الانسان للطبيعة أن تعمل في حياته كيفما تشاء ، فلا يركن الى جهاد إرادته بلا جدوى وكان « لاوتز » رجلاً بعيد النظر ثاقب الرأي ، ويقال عنه انه حين التقى بكنفوشيوس أُلح له الى خطأ مبادئه الأساسية التي تزعم أن القانون كفيّل بإصلاح الانسان ،

وقال له في عبارة صينية جرت مجرى الأمثال ان الانسان لا يفعل الصلاح لأن « أعماق قلبه لا يستقر فيها شيء من الصلاح ». وكأنه يردد هنا ما جاء في انجيل يوحنا « ينبغي أن تولدوا ثانية ». ومن تعاليمه أن يجازي الشرّ بالخير. وهذا عكس ما دعا اليه كنفوشيوس. ومع ذلك فإن « لاوتر » هذا لم يؤثر إلا أثراً ضئيلاً في بلاد الصين . وذلك لان رسالته الوحيدة كانت أن يهجر الناس العالم ، بينما انصرف كنفوشيوس في دعواه الى إصلاح المجتمع .

وابس للتاوزمية شيء من هذا المعنى في هذا العصر إلا في عقول نفر قليل من الكهنة والعلماء . ولم تعد اليوم إلا مزيجاً من الخرافات تدور حول قوى الطبيعة وتكريمها عند وضع أسس المنازل أو حفر القبور . واختلطت بها في سهولة مناجاة الأرواح وقراءة الكفوف والسحر والتعاويذ . ولعلّ إباء الكنفوشية وقطعها كل علاقة بمثل هذه المظاهر، هو الذي حمل هذه الخرافات الوثنية على الالتجاء الى الديانة التاوزمية. ولقد تسالت اليها الخرافات بسبب ما انطوت عليه من أسرار غامضة ومعان ملتبسة . وربما كان في هذا الغموض قوتها التي تفتقر اليها الكنفوشية، ولكنها كانت أيضاً سبب ضعفها . وهي بالأسف نقطة الضعف في بلاد الصين هذا العصر .

البوذية الصينية

وقدت البوذية الى بلاد الصين حوالي بدء العصر المسيحي على يد المرسلين الهنود وبفضل الحجاج الصينيين الذين ذهبوا الى الهند وعادوا اليها حاملين الرسالة البوذية . فلما استوطنت هناك طرأت عليها بعض التغيرات . فبوذية

الهند لا إله لها . ولكنها حين انتقلت الى الصين مالت الى الاعتقاد بفكرة كائن مطلق يتمثل في شخصيات مختلفة ، بوذا واحد منها . وأشهر تلك الشخصيات في بلاد الصين من يدعوها « كوان ين » ، وهي عندهم إلهة الرحمة يرفعون اليها الالبتهالات في المعابد البوذية .

ثم زالت فكرة « النرفانا » في البوذية الصينية وحلت محلها فكرة الفردوس للمادية، وفيه تنعم النفس بالحديث مع الشخصيات الالهية. والبوذي الصيني لا يفقه شيئاً من معنى « النرفانا » الهندية، ولكنه يعتقد أنه سيذهب بعد الموت الى فردوس في الغرب .

والصلوات أو على الأقل الالبتهالات ذائعة في البوذية الصينية مع أنه لا وجود لها في البوذية الهندية التي شرعها بوذا نفسه. وفي بعض رقايع الصين قد أدخلت عجبت الصلاة الآلية التي يستعملها أهالي التيب .

ثم ان النظام المقدس الذي وضعه بوذا لجماعة الشحاذين الزاهدين قد استحال في بلاد الصين الى جيش عرمرم من النساك والناسكات ، معظمهم في أحط درجات الجهل والغباء .

فكان البوذية عند انتقالها الى بلاد الصين قد أمست مادية وابتعدت عن روح مؤسسها ، ولكنها استمسكت بطقوس ورسوم جافة . ومع هذا كله فانه من الخطأ أن نضعها مثلاً في مرتبة واحدة مع التاوزمية ، ذلك لأنها فعلت كثيراً في احياء فكرة الخلاص في بلاد الصين . وبنما عملت السكنفوشية لحمل الناس على الاكتفاء بفضائلهم الذاتية ، فان البوذية قد رسمت امامهم

صورة باهتة لفكرة الخلاص (ليس الخلاص من الخطية ، بل الخلاص من العالم المتألم بسبب خطيته) ، عن طريق توضيحية اختيارية من جانب قوة أخرى . ويقول المرسلون المسيحيون ان المتنصر البوذي يفهم حالاً فكرة الفداء في المسيحية .

فهرسة الريانة الصينية

والآن لنلخص ديانة الصينيين : منذ التاريخ القديم سادت فيها عبادة الاله « شنتاي » ، وعبادة الاسلاف ايضاً . ثم جاء كنفوشيوس فأقام ، بالأسفار المقدسة التي كتبها ، وبتعاليمه وحياته الشخصية وأخلاقه ، مجموعة من التقاليد ما زالت باقية حتى اليوم . فقبل العبادة القائمة في عصره ومزج فيها تعاليم أدبية اجتماعية اقترنت باسمه ، ترمي كلها الى سلام الأمة ورفاهيتها . وتضيف البوذية الى هذا كله شيئاً كثيراً من السحر والشعوذة والخرافات ممزجة بشيء من الدين الحقيقي : اما التاوزمية فهي — ما خلا الفلسفة التي لا يفقهها إلا نفر قليل من العلماء — وضع من أحط الأوضاع للسحر والسفسطة والمباحكة . وهذه الأديان الثلاثة مشتبكة مضمفورة معاً وكلها رسمية ، حتى البوذية والتاوزمية معترف بهما . ومن دلائل هذا الخلط الديني الغريب انه على الرغم من الاعتراف الرسمي بالتاوزمية والبوذية ، تجد الكنفوشية تذيع مرة كل اسبوعين في كل هيكل كنفوشي نداءً تنعي فيه البوذية والتاوزمية حاسبة اياها عبادة وثنية ، وبعد هذا كله يصح القول ان الصيني هو في الوقت الواحد كنفوشي و بوذي ، وتاوزمي .

ويستند التفكير الكنفوشي الى التعليم، والى الحكومة الصالحة العادلة والعلاقة الاجتماعية المنظمة، لترقية النفس البشرية، وهو في هذا يجاري الى حد كبير التفكير الغربي الحديث. وليس في الكتب الصينية شيء عن تقدير ضعف الانسان الأدبي وما فيه من غريزة الخطأ، أو الاعتراف بحقيقة الارادة الشريرة، مما تفرضه علينا فرضاً وجهة النظر العملية في الحياة. لذلك خلت من فكرة امكان استمداد المعونة من إله، أو قوة للتجديد والإحياء من مصدر خارق للطبيعة.

على انه يتضح لنا جلياً لدى إعمال الفكرة ان بقاء القيم السامية البشرية يفتقر دائماً الى مرساة تثبت في إله ما. أما وجهة النظر التي تذهب الى أن الطبيعة البشرية صالحة بالضرورة وتستبعد الله كلية، فهذه أعجز من أن ترفع الانسان فوق المستوى الطبيعي.

نور معرفة الله

هل للمسيحية رسالة الى شعب الصين الذي ظل دهوراً يتعسس طريقه بين آلهة كثيرة؟ — تقدم لذلك الشعب رسالة الله الواحد، الآب، المعلن في يسوع المسيح: ثم هي تهىء له ايضاً مستوى أدبياً سامياً، أرفع من مستوى كنفوشيوس، وأرقى من مستوى بوذا، وأكثر في تأثيره العملي من الفيلسوف لاوتز — مستوى مشتقاً، لا من فقه الحكماء والفلاسفة، بل من صفات يسوع الذي تلامت أقواله مع حياته. وحين يفشل البشر أمام سمو هذا المطلب، تجدي عليهم المسيحية خلاصاً لا نصحاً، وقوة من الله تعين.

على الحياة الصالحة . ثم تضع المرأة في مكانها المكرمة اللائقة بها ، وتلقى نوراً على الحياة بعد الموت . ومن الأسف أن الصين لم تنعم قط برجاء حي في الخلود ، فان البوذية والتاوزمية لم تعطيا إلا فكرة غامضة مبهمّة عن الحياة للمستقلة ، أما الكنفوشية فقد صممت عندها ولم تنطق شيئاً ، ولو أن عبادة الاسلاف تنطوي على شيء من المعنى في هذه العقيدة . ولكن المسئلة كلها مضطربة غامضة . أما الرجاء المسيحي في الخلود فصاف رائق لا غموض ولا التواء فيه .

والآن ، وقد أخذت أنوار الخرافات الفاسدة تتضاءل في تلك البلاد ، فلا يجديها إلا النور الكامل الذي يشع من المسيح . أما الحقائق الأدبية الاخلاقية فلن يمكن أن تخلص أية أمة . ولهذا تنشط الديانة المسيحية في بلاد الصين لانقاذها من العصور المظلمة والتقاليد البالية .

الشنتوية

والاديان الاخرى في بلاد اليابان

اليابان من شعوب الأرض الفتية. فلا يبدأ تاريخها المعروف (ان غرضنا الطرف عن الأساطير) قبل القرن الخامس بعد المسيح. وأقدم الوثائق اليابانية التي يعتمد عليها المؤرخون لا تبعد الى أكثر من القرن الثامن . وحضارتها مشتقة في أصولها من حضارة الصين . وانه لمن غرائب التاريخ أن نرى اليابان ، وقد اقتبست حضارتها عن الصين ، سابقتها في هذا الميدان ، تخطو في السنوات المتأخرة خطى واسعة وتسبق جارتها في الرقي المادي ، وكانت قبل هزيمتها في الحرب العالمية الثانية قوة عالمية يخشى بأسها كبريات الدول .

وحين نصف اليابان كأمة فتية ناهضة حتى بعد هزيمتها ، فالذي يدور في أذهاننا ليس حادثة عهدا نسبياً في التاريخ ، انما هو تلك السرعة الفائقة التي ظفرت بها الى مقام الزعامة في الشؤون التجارية والحربية مما أعدها لان تقف على قدم المساواة مع الدول الكبرى في معداتها العصرية الحديثة . ولقد نشأت اليابان الحديثة سنة ١٨٦٨ ومنذ ذلك التاريخ استطاعت أن تقلب نظم التعليم فيها وتقيمها على أحدث الأسس ، ثم تزج بنفسها في

مضمار التجارة الغربية وتصبح احدى الامم الصناعية الكبرى في العالم ،
وان تكن لم تسلم من الاهوال التي تصحب النظم الصناعية عادة وخصوصاً
في شعب شرقي حيث تضعف شوكة الحدود الادبية . وفي تاريخها الحديث
أثارت حروباً ضد روسيا والصين كان فيها الفوز حليفها. ثم تضاوت الى
الحلفاء في الحرب العالمية الكبرى وأثارت حرباً أخرى ضد الصين. وفي الحرب
العالمية الثانية هزمت شرّ هزيمة سلبتها قوتها الحربية . على انها قد تصبح
فيما بعد عاملاً كبيراً في سياسة الشرق الاقصى .

أديان اليابان

في اليابان ثلاثة أديان — غير المسيحية — وواحد منها فقط أصيل فيها
نشأ في تربتها. ولقد كان للكنفوشية الصينية أثر كبير في تكييف الافكار
اليابانية وآرائها الاخلاقية، ولكن أثرها مقصور الآن على الطبقات المتعلمة.
وليس لها اليوم كبير أثر في بلاد اليابان . أما الدين الاصيل في بلاد اليابان
فهو الشنتوية Shintoism وهو نوع من الثقافة القديمة المشتقة من عصور
الاساطير العريقة في القدم ، وهي اليوم الأداة المختارة للتعبير عن الروح
القومية الحيّة في بلاد اليابان. وهناك ايضاً البوذية المأخوذة عن الهند، وان
تكن قد اصطبغت بألوان ومميزات جعلتها بوذية يابانية أو بوذية شرقية على
حد قولهم:

الشنتوية

ولنبداً أولاً بالشنتوية : وهذا الاسم هو نطق ياباني للكلمة الصينية التي معناها « طريق الآلهة » . وهي دين لا ينتسب الى مؤسس معين خلافاً للبوذية والكنفوشية . ولعلها كانت في أدوارها الأولى ضرباً من ضروب عبادة الأرواح ، ثم اختفت مع تطور الدين تلك الخواص الفطرية التي ظهرت في الأدوار الأولى ، وان يكن الكثير منها باقياً في الشعور الديني لرجل الكافة في اليابان . وما التعاويذ الخشبية أو الورقية التي تعلق عادة فوق أبواب المنازل ، وقطع القماش التي ترفرف فوق الآبار أو الأشجار المقدسة ، وحبال القش التي تتدلى فوق أبواب الهياكل — إلا آثار لعبادة الأرواح التي كان مفروضاً على الأهلين استرضائها ، والتي تلقىها اليابان الحديثة عن تاريخها القديم . وكذا نجد في الشنتوية عبادة الطبيعة ، وخصوصاً قوى الطبيعة المنتجة ، وهي من خصائص الأديان الفطرية الأولى . ففي اليابان توفير خاص للآلهة الشمس أو كما يسمونها Amaterasu . ومن آلهتهم أيضاً Inari وهو إله الأرض الذي تكثر معابده في الأقاليم التي تنبت الأرض بكثرة في بلاد اليابان . ويطلقون لفظة Kami على كل إله أو شيء يسمو فوق الفرد، كالسماء مثلاً أو سلطان الحكومة .

توفير القبيلة

وفي عناصر تطورات الشنتوية الأولى نرى خير تعليل لقوة سلطانها في هذا العصر . و بين تلك العناصر توفيرهم للسلف من القبائل أو زعماء الجماعات

السابقة ، وقد كان هذا من المميزات البارزة في الشنتوية في عصورها الاولى . وهناك فارق بين توقييرهم للسلف من القبائل ، وبين عبادة الاسلاف في بلاد الصين . ففي الاخيرة تتجه الفكرة الى الاكبار من شأن الاسرة أو الاب والام والجدود ، وإحلالهم موضع التوقير والعبادة في بلاد الصين . اما في الشنتوية فالفكرة متجهة الى الجماعة أو القبيلة . وعبادة الاسلاف الصينية ذائعة في بلاد اليابان ، ولكنها كنفوشية في اصولها ومكملة لتوقير الياباني لقبيلته وابطاله واسلافه .

عبادة الميكادو

وكان رجال قبيلة « يمتو » أشد الناس احياء لتوقير السلف من القبائل ، وهم الذين صاروا سادة اليابان فيما بعد ، وهم بناة مجدها ورافعوا لواء عظمتها في تاريخها اللاحق . وكان زعيمهم ، المعروف بالميكادو ، مركز دينهم وعبادتهم . ثم زعموا أن الشمس تمتُّ اليهم بصلة القرى ، ومنها تحدر الميكادو فحسبوه ممثل الشمس وآله السماء على الارض . وكانت عبادة أسلاف القبائل الذائعة في اليابان قبل إخضاع أسرة « يمتو » لها ، خير ممد لهذه العقيدة الجديدة . وفعل رجال « يمتو » كثيراً في تبسيطها وتقريبها الى أذهان العامة بأن أدخلوا عليها آله صغرى هم زعماء القبائل التي دانت بالطاعة والولاء لحكم الاسرة الفاتحة . وكان لهذا الجمع بين الآراء السياسية والدينية أثره الكبير ، فانتج في عصرنا هذا توقيراً يكاد يبلغ حد العبادة لشخص الامبراطور . على انه بعد الحرب العالمية الثانية تنازل الميكادو عن ألوهيته ، وأمسى شخصاً عادياً .

وها هنا نرى الميزات الخاصة البارزة في الدين الياباني ، فالشنتوية ليست

دينًا محكم الاوضاع ، ولا تقاس بالهندوسية في أسرارها ، ولا بالكنفوشية في مقائنها الاخلاقية . ولكنها منظوية على طراز معين من الوطنية الدينية المتطرفة . فالامبراطور والدولة كانا في نظر الياباني قبل هزيمة اليابان ، هما كل شيء والفرد لا شيء . وكانوا يستسيغون تضحية الذات في سبيل الامبراطور ، بل يرحبون بها كشراف عظيم . وقد كانت عبادة الامبراطور من العناصر البارزة في دين اليابان ، ولذا كانت عقبة في طريق انتشار المسيحية في تلك البلاد ، لأن المسيحية تضع الله فوق الامبراطور .

الفرق الشنتوية

أما من الوجهة الاخلاقية فالشنتوية ليست دينًا ساميًا . فانها لا تعير اهتماماً كثيراً للأخلاق والآداب لانها لا تقيم للفرد وزناً . نعم ان بها فكرة عن كرامة الفروسية (Bushido) ، ولكن اقتصرها على طبقة معينة يجعلها عديمة الجدوى كبداً أدبي أخلاقي لعامة الشعب . ولعل ذبوع الكنفوشية والبوذية في اليابان قد حجب ما في الشنتوية من قدر قليل في الآداب والاخلاق . على أننا نلاحظ ناحية واحدة قد يكون فيها بعض الشيء من الصفة الادبية ونعني بها النظافة - « فان الدنس مصيبة ، والرجس خطية ، والطهارة الجسدية هي على الاقل قداسة . وكل شيء يدنس الجسد أو الثياب مستقبح ممجوج » . قد لعبت النظافة الطقسية دوراً خطيراً في الطقوس الشنتوية فجبل الشعب الياباني على عناية خاصة بالنظافة الشخصية ، مما نحسبه قوة أدبية الى حد ما .

هجرة الشنتوية بالبوذية

قبل ألف سنة اندمجت الشنتوية في البوذية . فان كهنة البوذية قدموا الى اليابان سنة ٥٥٢ ب.م. من كوريا وتبعهم آخرون من بلاد الصين. وكان هؤلاء أثر عميق في البلاط الملكي. ولكن ظلّ عامة الشعب قرنين ونصف على تشبّثهم بالشنتوية القديمة. الى أن برز راهب بوذي فابتكر نظاماً ابتلعت فيه الشنتوية ، وفي هذا النظام أدمج كل آلهة الشنتوية حاسباً إياها مظاهر متجسدة لبوذا، واشترط أن يكون هذا شأن الأباطرة (الميكادو) في المستقبل، أي أن يُدمجوا ضمن هذه الآلهة الصغرى . ولئن كان بقي لدى عامة الشعب شيء كثير من عبادة آلهة الطبيعة ، فان هذا النظام قضى أن تدمج الشنتوية في البوذية .

وعقب هذا التبدل نهضة استيقظ فيها الشعور القومي وبلغ أوج قوته في ثورة سنة ١٨٦٨ ، فأظهر الشعب صداً عن كل أجنبي غريب وزحزح البوذية الدخيلة عن منزلتها العليا ، التي تسنمها . فأزيلت التماثيل البوذية من ألبيا كل وأوقف الكهنة البوذيون عن ممارسة وظائفهم ، وعادت الشنتوية ديناً قومياً في المرتبة الاولى . وطبيعي أن يعقب هذا شيء من ردّ الفعل ، فرفعت البوذية رأسها ثانية، وخفض جناح الشنتوية، ولكن آثار تلك النهضة لم تضعف وبقيت عاملاً قوياً خطراً في تكييف حياة الشعب .

وجهة النظر الرسمية للشنتوية

وتميل النزعة الحديثة في دوائر اليابان الرسمية الى اعتبار الشنتوية مجرد

نظام قومي تتجسم فيه المشاعر القومية، لا ديناً بالمعنى الصحيح. وفي هذا يقول أحد نبلاء اليابان : « ان الشنتوية نظام محكم نرفع بموجبه قبعاتنا تكريماً لأسلافنا وأبطال وطننا » ، وهذا هو الاتجاه الذي تسير نحوه الشنتوية. ومما هو جدير بالذكر ان كهنتها لا يندرون العزوبة ، ويقومون علاوة على أعمالهم ومنهم العادية بوظائفهم الكهنوتية ، وذلك لان واجباتهم الدينية ضئيلة . ويعتقد كثيرون من اليابانيين أن ليس في الشنتوية ما يناقض المسيحية ، وما هي إلا نزعة قومية بحتة . ولكن قلّ بين مسيحيي اليابان من يسلم بوجهة النظر هذه .

الشنتوية الرسمية اليابانية

في سنة ١٨٨٢ انقسمت كل المؤسسات الشنتوية بحكم القانون الى قسمين كبيرين : هما « الشنتوية الطائفية، والشنتوية الرسمية » . وحسبت الحكومة الطائفة الاولى « الدين الحق » ، أما الطائفة الثانية فخرجت من نطاق هذا التقسيم . ولقد قال أحد الثقات اليابانيين : —

« أما هذه الشنتوية الرسمية فيمكن أن تؤخذ كمظهر من المظاهر القومية وتعاليم الأخلاق والآداب اليابانية. وإلى هذا الحد يصح اعتبارها غير دينية. ولكن إذا تعمقنا في البحث لا نلبث أن نجد أن الشنتوية الرسمية ليست إلا ديناً نسج نسجاً في نظم اليابان القومية » .

وتتولى الحكومة الاتفاق على الهياكل الرسمية التي تقام فيها حفلات الشنتوية الرسمية. ولا يجوز للشنتوية الطائفية أن تستعمل هذه الهياكل للعبادة

فيها. وفي أعياد ومواسم هذه الهياكل الرسمية ، يتحتم على كل معلمي المدارس المحلية أخذ الطلبة الى تلك الهياكل لمشاهدة الاحتفال .

ولباب هذه الشنتوية الرسمية هو عبادة الاسلاف. وكان غرض الحكومة في تعزيز الشنتوية الرسمية ورعايتها انما هو الاحتفاظ بعبادة الامبراطور وخلود مركزه وعصمته وتساميه فوق الجميع . وتقول إحدى النشرات التي صدرت عن وزارة المعارف في مارس سنة ١٩٣٧ : « إن أرضنا بلد إلهية ، يحكمها الامبراطور وهو إله ». ولكن هذا كله قد تبدل الآن ، وأخذت تغمر اليابان نزعة ديمقراطية غربية ، واشترأت أعناق الشعب الى المسيحية .

البوذية اليابانية

قلنا عن البوذية الشيء الكثير عند الاقضية في أديان الهند والصين ، وهي ناشطة في بلاد اليابان تتمثل في طوائف وشيع كثيرة ، بعضها يمتاز بالتسامح ، وبعضها يتصف بالتعصب ، وبعضها يميل الى الزهد والتصوف . وقد تطورت إحدى تلك الطوائف تطوراً يغاير البوذية الشمالية وهي طائفة الشنية التي تعد أكبر وأنشط الطوائف البوذية اليابانية . ويشاطر أتباعها البوذيين الشماليين وجهة نظرهم من حيث اعتبارهم بوذا جوهرأ إلهيا حالاً في الكون وممثلاً في أوضاع مجسمة شتى . وثقافتهم مأخوذة عن « أميدا بوذا » . وهم يزعمون أن « أميدا » هذا ظهر على الأرض في العصور الخوالي في شكل راهب وأخضع نفسه لضروب من الازلال والقهر حتى استطاع أخيراً أن يرقى الى الحالة المجيدة التي نزل منها . وقبل عودته أثبت نذراً قال فيه انه لو قدر له أن يبلغ درجة الكمال في البوذية فانه لا يرضى خلاصاً قبل أن يتبهاً

هذا الخلاص للجنس البشري المتألم . وتنفيذاً لهذا النذر عانى كثيراً من الآلام والأوجاع ولكنه غلب في النهاية . وكانت ثمار جهوده افتتاح فردوس في الأرض الطاهرة يجوز اليه كل من يدعون باسمه » .^(١)

وكان مبدع هذا التعليم راهباً اسمه «شوران» نقل أغلب أحكامه وأوضاعه عن طائفة Jodo Sect وأضاف إليها عناصر أشبه بتلك التي أدخلها لوثيروس في عصر الإصلاح المسيحي . فقال ذلك الراهب : ان «الأعمال» أي التقشف والصوم والطقوس وما شاكلها، ليست بذى قيمة في الخلاص الذي يقوم في أصوله على الايمان في نذر «اميدا» . ولكي يدفع عنه تهمة القول إن تعليمه يبعث على الخطية ، أبدى أن الامتنان المتغلغل في نفس الانسان الذي يشعر بخلاصه يسوقه الى الاكثار من «الاعمال» أي أعمال الصلاح ، مدفوعاً إلى ذلك بروح الشكر اكثر منه بالرغبة في كسب الخلاص .

وليس «اميدا بوذا» لليابان فقط . فهو مظهر بارز في قوانين ومناسك البوذية الشمالية ، بل يقول البوذيون اليابانيون إن «غوتاما بوذا» أشار في أواخر حياته الى «اميدا» هذا . وهي قصة لا ترتكن الى سند ، بدليل الفارق العظيم بين تعاليم هذا وذاك . وتعاليم «اميدا» مقصورة على الطائفتين اليابانيتين ، وخاصة الطائفة الشنية التي لا تقدم أية عبادة الى «غوتاما بوذا» وتخالف البوذية العادية في أن كهنتها لا يندرون العزوبة ، وفي عدم مراعاتها شيء من قواعد التقشف والزهد في البوذية العادية .

(١) عن A. Lloyd "The Creed of Half Japan".

بوزية اميدا والمسيحية

يبدو لكل مطلع، شيء من التشابه بين تعاليم « اميدا »، وبين بعض التعاليم المسيحية، وخصوصاً تعاليم الرسول بولس عن التبشير بالايان . والدليل متوافر على أن الراهب « شنران » عرف شيئاً عن المسيحية، وكذلك عرف أسلافه من زعماء البوذية شيئاً عنها من جرّاء اختلاطهم بالمرسلين النسطوريين. على أن هذا لا يحملنا على الاقلال من شأن تعاليم كهذه، تزدهر في قلب البوذية ويعتقها البوذيون في حماس شديد . وقد قلنا ان الطائفة الشذية أنشط وأكبر الطوائف الدينية البوذية في اليابان . ولعل في هذا دليلاً على ان الطبيعة البشرية تستأثرها فكرة الخلاص التي لا تقوم فقط على الاستحقاق « والأعمال ». ومن يدري زبما تستيقظ . اليابان وتقبل مغتربة قصة الخلاص، لا بوساطة كائن غامض تشير اليه الأساطير، بل بوساطة مخلص حقيقي أيد مجيئه التاريخ. ورغم التشابه بين بوذية اميدا وبين المسيحية، فآنا لا نتعاضد عن الفوارق العظيمة بينهما . فالخلاص في نظر البوذي ليس خلاصاً من الخطية، بل من قيود الرغباب ومن الآلام ومن الآثار التي تترتب على تناسخ الأرواح وانتقال الروح من وجود إلى آخر . وفكرة عن الخلاص كهذه ناقصة من الناحية الأدبية . ثم أن عقيدة البوذي في الحياة المستقبلية يحوطها الشك والارتباب، فالفردوس عنده مجرد رجاء . وهو مكان تتوقف فيها النفس رداً من الزمن في طريقها الى الطور الأخير الذي يصعب التمييز بينه وبين الفناء .

الحالة الدينية العامة في اليابان :

وفيما عدا تينك الطائفتين — Jodo and Shin — اللتين تدينان بهذه التعاليم في أوضاع مختلفة ، فإن البوذية ليست ناشطة في اليابان .
أما طوائف اميدا فناشطة جداً . وقد اقتبست إلى حد ما الأساليب المسيحية ، كأنشاء جمعية الشبان البوذية وغيرها من المؤسسات ، وتقوم الهياكل بجهود وخدمات على نمط الخدمات التي تجريها الكنائس . وتغمر الطائفة الشنية نهضة تتبع أساليب النهضات الغربية . بل إن لها مرسلين في كوريا ومنشوريا ، ويتحدثون عن إيفاد بعثة دينية إلى أمريكا . ومن هذا يتبين أن حياة البوذية اليابانية قائمة على ثقافة اميدا ، وحيث تختفي تلك الثقافة تبدو البوذية هيكلاً عاطلاً عن الحياة .

ويجمل بنا أن نذكر هنا أن البوذية والشتوية يتبادلان التسامح الكريم ، فينتقل الناس من هيكل بوذي إلى معبد شنتوي في غير حرج . ولا بأس في الحفلات القومية أن تجرى طقوس شنتوية ، أو أن يراعى في الجنازات الرسوم البوذية . وأما العقائد الأدبية التي يعتنقها الفرد العادي المحترم فهي مزيج من « نظافة » الشنتوية ، والأخلاق الكنفوشية البوذية ، وربما بعض التعاليم المسيحية . وهذا التسامح هو في الحقيقة ظاهرة من ظواهر اللاأدرية وعدم الاكتراث بالدين ، وهي ظاهرة يراها الأجانب والوطنيون أنفسهم تنفشي بسرعة في اليابان . ولقد انتج تدفق الثقافة الحديثة مزيجاً مضطرباً من الآراء في عقول الناس وخصوصاً الناشئين ، يصحبه الشيء الكثير من التشكك

وأنحلال المبادئ الأدبية . والظاهر تماماً أن الشنتوية والبوذية لا تسدّان حاجات البلاد الأدبية . ولقد بلغ الخوف بحكام اليابان وقادة الرأي فيها مبلغاً جعلهم على عقد مؤتمر للأديان الثلاثة الرسمية — المسيحية والبوذية والشنتوية — منذ سنوات ، وكان الغرض منه النظر في ترقية الأحوال الاجتماعية والأدبية في بلاد اليابان . وقد كان هذا المؤتمر — بغض النظر عما آل إليه أمره — اعترافاً بعجز البلاد على مجابهة مشاكلها الأدبية ، ودليلاً على المكانة التي بلغتها المسيحية .

التحكك بالله

هل للمسيحية رسالة إلى تلك البلاد ؟ من الناحية الأدبية تمسّ المسيحية بلاد اليابان في حالي ضعفها وقوتها . فالصدق والطهارة الجنسية من المميزات البارزة في الحياة المسيحية . ويلجأ كثيرون من غير المسيحيين إلى الاستعانة بالمبادئ المسيحية من هذه الناحية . ثم إن الفكرة اليابانية عن التضحية وانكار الذات تتعمق وتزداد خصوبة في الصليب . وهناك دلائل تشهد لقوة الصليب في العقل الياباني إذ يُنظر إليه كنموذج من فعال البطولة وانكار الذات . أما الميول السلبية في البوذية — أي التقشف واذلال النفس وقمع الجسد — فهذه غريبة عن المزاج الياباني . وليس من شك في أن إهداء المبادئ المسيحية الأدبية في أكمل أوضاعها سيكون له أبلغ النتائج في تلك البلاد .

ولدى المسيحية كل شيء تفتقر إليه اليابان من الوجهة الدينية . لان

الإديان اليابانية قد فشلت في اعلان الله للشعب الياباني . فالشتوية وما تتضمنه من عبادة الطبيعة والوطنية الدينية لم تفعل شيئاً في الكشف عن الله الحقيقي ، ويعرف البوذي العادي من الخرافات والفردوس المادي أكثر مما يعرف عن الله . وفي اليابان مثل سائر يقول « بوصة واحدة فقط وإذا بنا في ظلمة حالكة » ، اشارة إلى ظلام الفسق الذي يتحرك في نطاقه الدين الياباني . ولم تختبر اليابان قط تلك الطائنة الواثقة بالله التي تمكن الانسان من السير في مخاطر الحياة غير هيب ولا وجل ، ولم تعرف قط ذلك اليقين الهاديء المكين في محبة أب غير منظور وقوته .

قلنا إن الصليب يبدو للعقل الياباني كنموذج سام لتضحية الذات نيابة عن الغير . ولكن « الكفارة » و « الفداء » وحتى « الخطية » — مصطلحات غريبة عن الفكر الياباني . والصليب كدينونة على الخطية ، ورسالة للغفران ، لا يثير في العقل الياباني الا قليلاً من اليقظة والاستعداد لتلبية ندائه . ولكن في هذا عينه الهبة الكبرى للياباني في نهاية الأمر . فحتى اذا افترضنا ان ثقافة « اميدا » تهيب للناس خلاصاً من الخطية ، لا من الآلام ، فانها تبقى جد مفقورة الى القوة لبث الشعور الحقيقي بالمسئولية الأدبية . ذلك لأن ليس لديها شيء يتسق مع الصليب أو يماثله . فهي تعلن مغفرة لا تكلف إلا قليلاً ، وتميل نوعاً ما الى محبة الله ولكنها تفشل في اظهار قداسته . وحاجة اليابان الأدبية كما يعترف بها ساستها لا تُسدُّ إلا بانجيل الغفران الذي يفتح عيون النفس لتدرك شناعة الخطية ومحبة الله الغافرة .

النزاع بين الدين والوطنية

وقبل هزيمة اليابان في الحرب الأخيرة كانت أعظم عقبة في سبيل انتشار الروح الدينية الحقة هي روح القومية الشديدة والوطنية المضطربة التي تملك على الشعب كل عواطفه. فالتوقيع الديني للميكادو كان عنصراً فعالاً، بل كان أفعال العناصر وأقواها في الحياة اليابانية. وكانوا يقيمون ضد المسيحية تهمة صارخة بأن مطالب المسيح تتعارض مع مطالب الميكادو. وقد تبدل هذا كله بعد أن صار الميكادو انساناً عادياً. وحقاً إنه لمن أخطر الأمور على الأمة أن تخضع على نفسها ومصيرها القومي، في شخص حاكمها، ذلك التوقيع الذي لا يليق إلا بالله دون سواه. واليوم تقدم المسيحية لليابان إقالة من عثاها. فالمسيحية لا تنطوي على خيانة أو ولاء بارد للوطن كما كان يزعم الياباني، ولكنها توسع نطاق الوطنية. والمسيحي ينظر إلى مصير أمته وأمجادها كأنها مجتمعة ومتضمنة في فكرة أوسع هي ملكوت الله على الأرض، ذلك الملكوت الذي تفرغ فيه كل الشعوب مجدها وكرامتها. ههنا، وههنا فقط، الحق الذي يوسع آفاق الوطنية العمياء الضيقة. والمهمة الملقاة على عاتق المسيحيين الوطنيين في اليابان، أن يظهروا للملأ أن الوطنية لا تضيق بهذه الفكرة الواسعة، بل بالأولى تزداد نبلاً وكرامة ومجداً، وأن الإنسان يحب بلاده أصدق حب، ويخدمها أجل خدمة، متى طلب أولاً ملكوت الله

الاديان السامية

والآن نجيب الى الاديان الثلاثة الكبرى التي نشأت بين العنصر السامي — وهي اليهودية والمسيحية والاسلام :

ولما كانت هذه الأديان الثلاثة ما برحت حية متجاورة في الشرق الأدنى الذي اتخذته من قبل مهذاً لها ، فقد آثرنا أن ندع كل دين منها يتحدث عن نفسه. ولم نجد شيئاً من العناء في الحصول على بيان رسمي لليهودية في دائرة المعارف العبرية بقلم عالم انكليزي من اليهود المحافظين . على أنه ليس من الهين في هذا العصر العشور على بيان واحد يلخص الاسلام كله تلخيصاً وافياً ، وذلك لتباين الآراء ، لا في العقائد الاساسية ، بل في تأويلها والاجتهاد فيها في هذا العالم العصري. وقد رأينا ان نقتبس رسالة عن « عقيدة أهل الاسلام » ، كتبها العالم الكبير الشيخ محيي الدين بن العربي يشرح فيها الشهادتين . وهو من فلاسفة الاسلام ومتصوفته الذين عاشوا في القرن السابع الهجري .

وأخيراً بحث في المسيحية بقلم الاستاذ « وليم باتون » الذي نقلنا عن كتابه خلاصات الأديان الأسبوية التي تقدم البحث فيها .

اليهودية

(بقلم الدكتور هربرت لوي ، من اليهود الانكليز المحافظين ،
 واستاذ اللغة العبرية في كلية اكستر باكسفورد)

اليهودية : وصفها :

قد يصح أن نصف اليهودية بأنها أشد الديانات استمساكاً بفكرة التوحيد ، ولكنها في الواقع أكثر من مجرد عقيدة عقلية جرداء ، فهي الأثر الذي تطبعه هذه العقيدة ، بكل نتائجها المنطقية ، على الحياة — أي على الأفكار والسلوك . هي الدين الذي دعا اليه أولاً إبراهيم خليل الله ، وتمثل في عهد الختان ، وما يزال أنساله يمارسونه حتى اليوم . هي أقدم الديانات في الأرض ، ولد في أحضانها ديارتان قويتان ، سادت أكثر أقطار الكرة الأرضية . وقد عملتا على اذاعة مبادئ اليهودية في أوضاع معدلة ، ولكن جوهر تعاليمهما يهودي ، على الرغم مما بهما من اضافة أو حذف . من ثم لا نرى اليهودية تتحدد بينك الديانتين ، ولا تحسبهما باطلتين وثنيتين .

وليس من المهم أن نضع وصفاً دقيقاً رسمياً لليهودية ، فإن هذا يثير أماننا
 سؤالاً : ما الحد النهائي الأدنى لتطابق الوصف ؟ على أنه قد يقال ان اليهودية

تقوم على أساسين : هما وحدانية الله ، واختيار اسرائيل . وتنبت اليهودية عبادة الأوثان والشرك بالله ، وتؤمن بالله للبشرية قاطبة ولكنها ليست ديناً جامعاً . وتؤمن أن هذا العالم صالح ، وأن في وسع الانسان بلوغ الكمال ، وأن له ارادة حرة مختارة تجعله مسئولاً عن أعماله . ثم هي ترفض كل وسيط بين الله والانسان ، ولا تعترف بأية قوة في الكون تعمل الشر . فالانسان في نظرها حرٌ ، ليس خاضعاً للشيطان . ثم إن خيارات الحياة المادية ليست في حد ذاتها شريرة ، فالثروة قد تكون بركة وقد تكون لعنة . وقد خلق الانسان على صورة الله ، لذلك تحسبه اليهودية مخلوقاً كريماً كسائر اعمال الله . ولهذا السبب عينه تحسب الناس كلهم اخوة . وكما اتحدوا في بداية الأمر ، سيتشابكون معاً مرة أخرى في نهاية الدهور ، ويقتربون الى ملكوت السماء بمعونة اسرائيل . ووظيفة اليهودية أن تنشر السلام والمودة في العالم .

ولقد منحت اليهودية الجنس البشري — بما انطوت عليه من فكرة الملكوت الالهي الممكن اقامته في هذه الأرض على دعائم الحق والبر — رجاءً يرنو اليه ، وهيأت للتاريخ هدفاً يحيا به ، ويجاهد نحوه مدى الاجيال . وتشهد شعوب أخرى في تطورات العالم انحلالاً مستمراً ، من عصر ذهبي تغمره السعادة والرخاء ، الى عصر حديدي يشقى فيه العالم بالكد والعناء ، إلى أن ينتهي الأمر بظامة كبرى تأتي فيها النيران والدمار على نهاية كل الاشياء ، على الانسان والآلهة معاً . أما اليهودية فتومئ الى حالة من الكمال الانساني ، وغبطة تتأتى عن كشف ما هو إلهي في الانسان ، وإعلان مجد الله كاملاً ، كهدف نهائي يسعى اليه التاريخ .

وهنا الفارق البارز بين اليهودية والمسيحية . فبحال اليهودية ليس فيما وراء هذا العالم ، أي عالم الروح ، الذي لن يقدر الانسان العائش هنا على الأرض أن يدركه . أما رجاء القيامة ورجاء الخلود ، اللذان تعرفهما كل قبائل الشعوب وكافة العقائد ، في وضع ما من أوضاعهما ، وتحسبهما ضرورتين لازمتين ، فالظاهر أنهما قد انسابا الى اليهودية من عقائد دخيلة ، وربما أخذت رجاء القيامة عن الفرس أو بابل ، ورجاء الخلود عن الاغريق . ولا سند لأيهما في اليهودية بالذات . أما غرضها الأوحده فهو أن تجعل هذا العالم الحاضر ملكوتاً إلهياً قائماً على الحق والبر . وفي هذا تتميز نزعتها العقلية والاخلاقية العملية (١) .

ويتحقق هذا الغرض باصرارها على عقيدة التوحيد ، وعلى ممارسة الوصايا . وتنقر اليهودية على وتر الاعمال اكثر من تنقيرها على وتر الايمان ، وان تكن الاعمال لا قيمة لها بدون الايمان .

واليهودية ليست بحاجة الى عقيدة ايمان . أجل انه من المشكوك فيه جداً أن يُدعى الكافر المُلحد الذي يحفظ التوراة ويرعى مبادئ البر اليهودية يهودياً . وما من شك انه « يخلص » بالمعنى المسيحي ، لأن اليهودية تعلم أن لكل بار ، بغض النظر عن عقائده ، نصيباً في العالم الآتي . ولكن لان

(١) وليست اليهودية عقيدة أو نظاماً من العقائد يتوقف على قبولها الفداء . أو الخلاص في المستقبل . ولكنها نظام للسلوك البشري وناموس البر الذي يتحتم على الانسان اتباعه . (عن كوهلر — في دائرة المعارف العبرية) .

اليهودية تؤمن أن كل انسان صالح «مخلص»، فانها تحتم أن يكون اليهودي الصالح شيئاً آخر ، اسماً اخلاقياً ، من مجرد كونه انساناً صالحاً .

وبينا تفتح اليهودية الباب للدخلاء، فمن طبيعتها أن تبقى دائماً دين الاقلية الضئيلة ، وذلك بسبب ما تفرض من تضحية وإيثار . ووظيفة اليهودية أن تبقى وصية على المثل العليا، طاهرة الذيل سليمة أمام أعين العالم . ولزام على اليهود أن يحاموا عن مثلهم العليا، ولو زهقت منهم الأرواح في هذا السبيل، ولو ضحوا ، كما فعلوا في القديم ، لا حياتهم فقط ، بل رخاءهم المادي ، وهي تضحية أقسى عليهم من سواها . وما أكثر الشهداء العتيدين الذين أراغت أبصارهم الثروة المادية فلم يكثرثوا بالمثل العليا التي كان لزاماً عليهم أن يبذلوا حياتهم في سبيل الاعتصام بها إبان الاضطهاد .

والعالم في مسيس الحاجة لأقلية من ذوى المثل العليا . ولئن تكن اليهودية لا تبحد الحق الذي تعلم به المسيحية والاسلام، إلا أنها تؤمن في الوقت عينه أن في كلتا الديانتين عناصر أخرى لا تنسجم انسجاماً تاماً والمصدر البدائي الفطري الذي انبثق عنه هذا الحق . فاليهودية إذاً لا تناهض الاوضاع الدينية التي درج عليها الناس وألفوها وأحبوها ، وليست علة وجودها أن تنافس الجهود التبشيرية الناشطة التي تقوم بها ابنتاها ، الكنيسة والمسجد . وهي تحسب نفسها، لا الوضع الوحيد للحق، ولكنها أخلص أوضاعه كلها واكثرها طهراً ونقاء . وبيننا تنشط المسيحية، وينشط الاسلام، لبث تعاليمهما في العالم ، فان اليهودية تترقب حلول اليوم الذي تتمكن فيه من بذل نفوذها وادخال

تأثيرها على تينك الديانتين كما فعلت في الاصل ، ومن هنا تبسط سلطاتها على كل العالم.

أما كيف يحدث هذا، وفي أي وضع تكون العبادة الجامعة للاله الواحد، فهذا ما لم تتعرض لشرحه أو التعليق عليه . وهذا « الدين المحتقر » الذي يستمسك في الواقع بالبقية الباقية من البر، أو قل بجوهر البر، سيبقى مصوناً لا يتطرق اليه الفناء أو الفساد ، بسياج الوصايا العشر . ولقد نشأ ونما ، في حلقة متواصلة لم تنقطع ، مبتدئاً بالاعتراف البسيط بالوحدانية . ثم تطور وغدا نظاماً للحياة كاملاً شاملاً . وقد بُدِء في كتابة القصة من عصر ابراهيم الى يومنا هذا ، والقلم لم يفرغ بعد من الكتابة والتدوين .

عقيدة أهل الاسلام

للشيخ الاكبر محي الدين العربي^(١)

... قال الشيخ الامام العالم العامل محي الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن العربي: هذه رسالة تتضمن ما ينبغي ان يعتقد في العموم وهي عقيدة أهل الاسلام، مسّلة من غير نظر الى دليل ولا الى برهان . فيا أخوتي المؤمنين ختم الله لنا ولكم بالحسنى، لما سمعت قوله تعالى عن نبيه هود عليه السلام حين قال لقومه المكذبين به وبرسالته: إني أشهد الله وأشهدوا اني برىء مما تشركون من دونه . فأشهد عليه السلام قومه مع كونهم مكذبين به على نفسه بالبراءة من الشرك بالله والاقرار باحديته، لما علم عليه السلام ان يستوقف عباده بين يديه ويسألهم عما هو عالم به لإقامة الحجة لهم أو عليهم حتى يؤدي كل شاهد شهادته. وقد ورد ان المؤذن يشهد له مدى صوته من رطب ويابس وكل من سمعه . ولهذا يُدبر الشيطان عند الأذان وله حصاص ، وفي رواية وله ضراط . وذلك حتى لا يسمع نداء المؤذن بالشهادة ، فيلزم أن يشهد له

(١) نقلا عن كتاب « الهدية السعدية »، وهو مجموعة ست رسائل لبعض علماء الاسلام طبعت بمطبعة النجاح ، لصاحبها محمد حسين الترزي .

فتكون تلك الشهادة له من جملة مَنْ يسعى في سعادة المشهود له . وهو عدو
محض ليس له إلينا خير البتة . وإذا كان العدو لا بد أن يشهد لك بما أشهدته
على نفسك، فأحرى أن يشهد لك وليك وحبيبك مَنْ هو على دينك وملتك،
وأحرى أن تشهده أنت على نفسك بالوحدانية والإيمان في دار الدنيا . فيا
إخواني ويا أحبائي رضي الله عنكم، أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير إلى الله
تعالى في كل لحظة وطرفة ، وهو مؤلف هذا الكتاب ومنشؤه ، أشهدكم على
نفسه بعد أن أشهد الله وملائكته وَمَنْ حضره من المؤمنين وَمَنْ سمعه، أن
يشهد قولا وعقدا أن الله تعالى إله واحد لا ثاني له في ألوهيته، منزّه عن الصاحبة
والولد، لا شريك له ، ملك لا وزير له ، صانع لا مدبر معه ، موجود بذاته
من غير افتقار إلى موجد يوجده ، بل كل موجود سواه مفتقر إليه تعالى في
وجوده ، والعالم كله موجود به ، وهو أوجد وهو متصف بالوجود لنفسه، لا
افتتاح لوجوده ولا نهاية لبقائه ، بل وجود مطلق غير مقيد قائم بنفسه ،
ليس بجوهر متحيز فيقدر له المكان، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء ، ولا
بجسم فيكون له الجهة والتلقاء، مقدس عن الجهات والاقطار، مرئي بالقلوب
والابصار ، إذا شاء استوى على عرشه كما قاله، وعلى المعنى الذي أراده ، كما أن
العرش وما سواه به استوى . وله الآخرة والأولى ، ليس له مثل معقول ولا
دلت عليه العقول . لا يحده زمان ولا يقله مكان ، بل كان ولا مكان وهو
على ما عليه كان . خلق المتكّن والمكان، وأنشأ الزمان وقال انا الواحد الحي لا
يؤده حفظ المخلوقات ، ولا يرجع إليه صفة لم يكن عليها من صنعه المصنوعات .
تعالى أن يحله الحوادث، أو يحلها أو تكون بعده أو يكون قبلها ، بل يقال

كان ولا شيء معه. فان القبل والبعد من صيغ الزمان الذي أبدعه، فهو القيوم
 الذي لا ينام، والقهار الذي لا يرام. ليس كمثل شيء. خلق العرش وجعله
حد الاستواء، وأنشأ الكرسي وأوسعهُ للأرض والسموات. العلي اخترع
 اللوح والقلم الأعلى وأجراه كاتباً يعلمه في خلقه الى يوم الفصل والقضاء.
 أبدع العالم كله على غير مثال، سبق وخلق الخلق، وأخلق الذي
 خلق. أنزل الأرواح في الاشباح أمناء، وجعل هذه الاشباح المنزلة
 اليها الأرواح في الارض خلفاء. وسخر لنا ما في السموات وما في
 الارض جميعاً منه، فلا تتحرك ذرة الا اليه، وعنه خلق الكل من غير حاجة
 اليه، ولا موجب أوجب ذلك عليه، ولكن سبق بأن يخلق فهو الاول
 والآخر، والظاهر والباطن، وهو على كل شيء قدير. أحاط بكل شيء علماً
 وأحصى كل شيء عدداً. يعلم السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفى
 الصدور، كيف لا يعلم شيئاً وهو خلقه، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.
 علم الأشياء قبل وجودها. ثم أوجدها على حد ما علمها فلم يزل عالماً بالأشياء.
 لم يتجدد له علم عند تجديد الأشياء، وأحكمها وبه حكم عليها من شاء وحكمها.
 علم الكلّيات على الاطلاق، كما علم الجزئيات بالاجماع من أهل النظر الصحيح
 واتفاق، فهو عالم الغيب والشهادة فتعالى الله عما يشركون. فقال لما يريد فهو
 للربد الكائنات في عالم الأرض والسموات. لم تتعلق قدرته بشيء حتى أراد،
 كما انه لم يرد حتى علمه، إذ يستحيل في العقل أن يريد ما لم يعلم أو يفعل
 المختار الممكن من ترك ذلك الفعل ما لا يريده، كما يستحيل أن يوجد نسب
 هذه الحقائق في غير حي، كما يستحيل أن تقوم الصفات بغير ذات موصوفة

بها. فما في الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران، ولا عبد ولا حر،
 ولا برد ولا حر، ولا حياة ولا موت، ولا حصول ولا فوت، ولا نهار ولا ليل،
 ولا اعتدال ولا ميل، ولا بر ولا بحر، ولا شفع ولا وتر، ولا جوهر ولا عرض،
 ولا صحة ولا مرض، ولا فرح ولا ترح، ولا روح ولا شبح، ولا ظلام ولا ضياء،
 ولا أرض ولا سماء، ولا تركيب ولا تحليل، ولا كثير ولا قليل، ولا بياض ولا
 سواد، ولا رقاد ولا سهاد، ولا ظاهر ولا باطن، ولا متحرك ولا ساكن، ولا
 يابس ولا رطب، ولا قشر ولا لب، ولا شيء من هذه النسب للتضادات منها
 والمختلفات والمتماثلات إلا وهو مراد الله تعالى . وكيف لا يكون مراداً له
 وهو أوجد . وكيف يوجد المختار ما لا يريد . لا رادة لأمره ولا معقب
 لحكمه . يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ويعزُّ من يشاء ويذل
 من يشاء ويضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء . ما شاء كان وما لم يشأ أن يكون
 لم يكن . لو اجتمع الخلايق كلهم على أن يريدوا شيئاً لم يرد الله تعالى أن
 يريدوه ما أرادوه، أو يفعلوا شيئاً لم يرد الله إيجاده وأرادوه عندما أراد منهم
 أن لا يريدوه ما فعلوه ، ولا استطاعوا على ذلك ولا أقدرهم عليه . فالكفر
 والإيمان ، والطاعة والعصيان ، من مشيئته وحكمة وإرادته ، ولم يزل سبحانه
 موصوفاً بهذه الإرادة أزلاً والعالم معدوم غير موجود ، وإن كان
 ثابتاً في العلم في عينه ، ثم أوجد العالم من غير تفكر ولا تدبر عن
جهل أو عدم علم ، فيعطيه التفكر والتدبر علم ما جهل جل وعلا عن
 ذلك ، بل أوجد عن العلم وتعيين الإرادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم بما
 أوجدته عليه من زمان ومكان أكوان وألوان . فلا يريد في الوجود وعلى

الحقيقة سواء، إذ هو القائل سبحانه: وما تشاءون إلا أن يشاء الله، وانه سبحانه كما علم فاحكم وأراد فخصص وقدر فأوجد، كذلك سمع ورأى ما تحرك أو سكن أو نطق في الوري، من العالم الاسفل والأعلى. لا يحجب سمعه البعد فهو القريب، ولا يحجب بصره القرب فهو البعيد. يسمع كلام النفس في النفس وصوت المماسه الخفية عند اللمس. ويرى السواد في الظلماء والماء في الماء، لا يحجبه الامتزاج والظلمات ولا النور وهو السميع البصير. تكلم سبحانه، لا من صمت متقدم ولا سكوت متوهم، بكلام قديم أزلي كسائر صفاته من علمه وإرادته. وكلم به موسى عليه السلام مماء التنزيل والزيور والتوراة والانجيل، من غير حروف ولا أصوات ولا نغم ولا نغمات. بل هو خالق الاصوات والحروف واللغات. فكلامه سبحانه من غير لهات ولا لسان، كما ان سمعه من غير اصمخة ولا آذان، كما ان بصره من غير حدقة ولا أجفان، كما أن ارادته من غير قلب ولا جنان، كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر في برهان، كما أن ذاته لا تقبل الزيادة والنقصان. فسبحانه سبحانه من بعيد دان عظيم السلطان عليم الاحسان جسيم الامتنان. كل ما سواه فهو من جوده فائض فضله وعدله الباسط له القابض، أكمل صنع العالم وأبدعه حين أوجده واخترعه. لا شريك له في ملكه. ان أنعم فنعم فذلك فضله، وان أبلى فعذب فذلك عدله. لم يتصرف في ملك غيره فينسب الى الجور والحيث. ولا يتوجه عليه لسواه حكم فيتصف بالجزع لذلك والخوف. كل ما سواه تحت قهره سلطان ومتصرف عز ارادته وأمره. فهو الملهم نفوس المكلفين التقوي والفجور، وهو المتجاوز عن سيئات من شاء والاخذ بها من شاء هنا وفي

يوم النشور . لا يحكم عدله في فضله ولا فضله في عدله . أخرج العالم قبضتين وأوجد لهم منزلتين، فقال هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي . ولم يعترض عليه معترض هناك، فقال إذا لا موجود ثم سواه هياكل تحت تصرف اسمائه الاءه، ولو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لكان، أو شقياً لما كان من ذلك في شأن . لكنه لم يرد فكان كما أراد، فمنهم الشقي والسعيد هنا وفي المعاد . فلا سبيل لي تبديل ما حكم عليه القديم . وقال تعالى هي خمس وهي خمسون ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد لتصرفي في ملكي وانفاذي مشيئتي في ملكي . وذلك لحقيقة عميت عنها الابصار والبصائر ، ولم تعثر عليها الافكار والضماير ، إلا بوهب إلهي لمن اعتنى به من عباده وسبق له ذلك برحمة اشهاد . فلم حين أعلم أن الالوهة أعطت هذا التقسيم وأنه من دقائق القديم ، فسبحان من لا فاعل سواه ولا موجود لنفسه إلا إياه . والله خلقكم وما تعلمون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . والله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين .

الشهادة الثانية :

وكما أشهدت الله وملائكته وجميع خلقه وإياكم بالآيمان بمن اصطفاه واختاره واجتبااه من جوده ذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله إلى جميع الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأذنه، وسراجاً منيراً فبلغ صلى الله عليه وسلم ما أنزل من ربه إليه وأدى أمانته ونصح أمته ووقف في حجة وداعه على كل من حضر من أتباعه فخطب وذكر وخوف وحذر وبشر وأنذر

ووعد وأوعد وأمطر وأرعد . وما خص بذلك التذكير أحداً من أحد عن
إذن الواحد الصمد . ثم قال أهل بلغت . فقالوا بلغت يا رسول الله . فقال
صلى الله عليه وسلم اللهم اشهد وأني مؤمن بكل ما جاء به صلى الله عليه وسلم
مما علمت ومما لم أعلم . فما جاء به وقرر أن الموت حق عن أجل مسمى عند
الله إذا جاء لا يؤخر فأنا مؤمن بهذا إيماناً لا ريب فيه ولا شك ، كما آمنت
وأقررت أن القبر حق . وعذاب القبر حق . وبعث الأجساد من القبور حق .
والعرض على الله حق . والحوض حق . والميزان حق . وتطير الصحف حق .
والصراط حق . والجنة حق . والنار حق . وفريق في الجنة ، وفريق في السعير
حق . وكرب ذلك اليوم حق على طائفة . وطائفة أخرى لا يحزنهم الفزع
الأكبر . وشفاعة الملائكة والنبیین والمؤمنين وأخراج أرحم الراحمين بعد
الشفاعة من النار من شاء حق . والتأييد للمؤمنين والموحدين في النعيم المقيم
في الجنان حق . والتأييد لأهل النار في النار حق . وكل ما جاءت به الكتب
والرسل من عند الله علم أو جهل حق . فهذه شهادتي على نفسي أمانة عند
كل من وصلت إليه أن يؤديها إذا مثلها حيث كان نفعنا الله وإياكم بهذا
الایمان وثبتنا عند الانتقال من هذه الدار إلى دار الحيوان ، وأحلنا منها دار
الكرامة والرضوان ، وحال بيننا وبين دار سرايلها القطران ، وجعلنا من
الذين أخذوا الكتب بالإيمان ، ومن انقلب من الحوض وهوريان ، وثقل
له الميزان وثبت له على الصراط القديمان ، انه المنعم المحسان . لقد جاءت رسل
ربنا بالحق فهذه عقيدة العوام من أهل الاسلام أهل التقليد وأهل النظر
ملخصة مختصرة ، والحمد لله وحده (تمت) .

المسيحية

رسالة جامعة الى العالم

لا يسع كل متابع لهذه البحوث الموجزة التي أسلفنا عن أديان العالم الكبرى، إلا أن يتأثر في قرارة نفسه بما يلمس من شجن الانسان في تلمسه الطريق نحو الله — وسواء افكر الباحث في النفوس الكبيرة التي اضطربت بضرام إلهي براق أم في الجماهير الغفيرة التي اشرأبت أعناقها إلى السموات وآمنت بالله من نوع ما ، لا يسعه إلا الاحساس بأن طبيعة الانسان تصبو الى الله ، ولن يهدأ لها بال حتى ترتوي هذه الطبيعة الصادية . « أنت قد جعلتنا لك ، ولن تهدأ قلوبنا حتى تجد فيك مستقراً » . وقد يكون حقاً أن جموعاً من الخلق لا تفكر في الله مطلقاً — ولو أن في الأمر شكاً ، اذ ربما يكون الله موضع عبادة هذه الجموع تحت ستار مثل أعلى أو نزعة غالبة ، دون أن يخطر على أحد أن يدعو مثله الاعلى أو نزعته الغالبة — الله. فضلاً عن ذلك فإنه من خطال الرأي أن نزع من كل من يدين بالهندوسية أو الاسلام أو البوذية طالب غيور يطلب الله ويسعى اليه ، وكل مبتغاه أن يعلن له الوحي الصادق الذي لا مین فيه . كما أنه من خطال الرأي أيضاً أن نزع من كل من يدعو

نفسه مسيحياً يُحسب تابعاً متواضعاً صادقاً من أتباع يسوع المسيح . وكان مجال البحث في هذا الكتاب محدوداً ، فلم نستطع إلا اثبات خلاصات للأديان المختلفة ، دون أن نسهب في وصف تفصيلي لمظاهرها العملية . فبين جماهير الكافة في كل نظام من هذه النظم الدينية ، لا نرى إلا قليلاً مما نقدر على إخراجه من دائرة الوثنية الوضيعة ، والآداب الرخيصة ، والتخوف من الأرواح الشريرة . على أننا في حكمنا على الأديان لا نراعي اسوأ ما فيها ، بل أفضل ما بها . ولسنا ننكر أن فيها من دلائل المثل العليا ما تستطيع النفس أن تنهض به للوصول إلى الله .

فصل الأديان

وبعد هذا التصريح الضريح ، لامندوحة لنا عن التسليم بنواحي القصور فيها . فأى إله قدمت هذه الأديان للإنسان في آخر الأمر ؟
لقد رأينا كيف تذبذبت الهندوسية بين فكرة عن عالم روحي تنقصه الشخصية ، وفكرة عن إله ليس له إلا شخصية محدودة . وكيف جابه «غوتاما بوذا» أحزان الحياة وآلامها وحيداً مستوحشاً ، وجاء إلى البشر بأنجيل قوامه قمع الرغبات — وهو عوض هزيل لا يغني عن الله بديلاً . ورأينا كيف عاشت بلاد الصين أخقاباً طوالاً في غمرة من الشك والغموض والابهام حيال الله ، وكيف بلغت اليابان فكرة عن المحبة الإلهية ، لا بأس بها ، ولكنها مؤسسة على أسطورة لا تقوى على البقاء أمام قوة العلم التي لا تلبث أن تكتسحها . إنها لصورة حافلة بالأنوار المتكسرة ، وليس فيها نور صاف يشع منه

الايان الكامل. أجل، ان الله لم يترك نفسه بلا شاهد ، ولكنه لم يعلن في هذه كلها كما هو في طبيعته الحقّة .

من ثمّ لا نرى في هذه الاديان ديناً جامعاً شاملاً . وليس ثمة رسالة تستطيع أن تشق لها طريقاً بين الجنس البشري غير بشارة الله المفرحة :

التعليم المسيحي عن الله

لنعد الآن الى بحث مطالب الدين المسيحي بأنه دين جامع للجنس البشري قاطبة . ونرى قبل كل شيء أنه يحدثنا عن الله . واذا رمنا أن نفهم طبيعة الله في المسيحية ، فهناك نراه : الله الذي عاش معه يسوع في صلة وثيقة لا تنفصم عراها ، صلة الابن بالآب . وكل ثروات الولاء والتعبد التي خلفها كتاب العهد القديم - كلها اختزنت في فكر يسوع ، عوناً لنا على فهم حقيقة الله . فهو الاله الذي تفوق قداسته كل تصورات الانسان . عيناه أظهرا من أن ترى الشر ، هو خالق البشر والمسيطر على العالم . هو « الآب » ، ويحمل هذا اللقب كل معاني العطف والمودة والحنان .

ومن المؤلف أن يوصف الله ، حسب الفكر المسيحي ، بأوصاف ثلاثة هي : المحبة والقداسة والقوة . ولما كان أنبياء اسرائيل من دعاة التوحيد ، وقد بلغوا هذا اليقين ، لا من طريق الفلسفة العقلية والحاجة المنطقية ، بل من طريق تفهمهم قصد الله وادراكه في أظلم صور الحياة واحلكها ، فانه يتعين علينا ألاّ نستخدم هذه المصطلحات المليئة بالمعاني : وهي محبة الله وقداسته وقوته ، استخداماً هيناً سطحياً ، خشية أن تفوتنا الحقيقة الهائلة التي تنطوي عليها .

أما هذه الحقيقة فقد عرفناها من تعدد المحاولات البشرية في تفهيم أسرار الكون ، والوصول الى حقيقة يطمئن اليها القلب والعقل .

أما عن لفظ « المحبة » فقد قيل من أشباهها كلمات كثيرة في الأديان الأخرى . ولكن هذه الكلمة تشمل عدة من المعاني . وقد يراها بعضهم منظوية على أداء معروف ، أو مظهر من مظاهر الأنس والرقه وحسن الاخلاق ، ولكن المحبة في الفكر المسيحي هي التي تتألم الى أقصى حدود الألم . أما كون الانسان يصبو الى المعرفة بأن الله يحبه ، فهذا أمر لا جدال فيه . على أن الادلة المستنبطة من دراسات علم الدين المقارن ، تثبت لنا أن الانسان قد تعذر عليه بلوغ هذه العقيدة . ولقد لحنا منها ومضات عابرة مضطربة ، في الاساطير والخرافات القديمة . وقد كان الحال هكذا عند الاغريق والرومان في القديم . فقد لمح البشر ومضات خاطفة عن الله الحب في أساطير الاله ايزيس أو الأم العظمى . وذهب افلاطون الى القول إن المحبة الالهية هي أساس الخليقة . أما أرسطو (ومثله سبينوزا) فقد ذهب الى أن الله لم يحب العالم ، ولو أن العالم والانسان قد أحبا ، ولزام عليهما أن يحبا . أما فكرة « الله محبة » فقد جاءت الى العالم الوثني يسوع المسيح . ثم ان « المحبة » و « القداسة » في التعليم المسيحي ، متحدتان اتحاداً تاماً . فإقداسة في الاصل قبل المسيحية ، قد اختص بها الله تعالى ، ولكن حملت معها فكرة الرهبة والسرية التي لا تُدرك ، أكثر من فكرة الطهارة وصفاء الذات . على اننا نرى في العهد القديم عاموس النبي^(١) يذيع رسالته الرهيبة ، فيقول

(١) عاموس ٣ : ٢

إن الله يعاقب ذنوب شعبه إسرائيل، لأنه قد عرف إسرائيل من بين جميع قبائل الأرض . هنا نرى القداسة والمحبة تتحدان معاً اتحاداً مكيناً .

وفي العقيدة المسيحية عن الله، لا بد أن نجتمع بين القوة والقداسة والمحبة معاً . وانه لمن الخطر أن نفصل بين هذه الصفات الثلاث . ويتفاقم الخطر إذا حاولنا أن نفصل القوة عن القداسة والمحبة . وتذهب الفكرة المسيحية في نسبة القدرة الى الله، الى أنه تعالى الخالق المطلق الذي لا تحدّه إلا قداسة ذاته ومحبته .

ولن يبلغ الانسان هذا الايمان من طريق المطارحات النظرية، بل بالهام من الله وعلان منه . ونقصد بذلك ان البشر قد عرفوا الله لانه أعلن ذاته لهم . هذه هي شهادة الكتاب المقدس المنسجمة . ولا ندحة لنا هنا عن القول إن هذا الاعلان قد يكون فارغاً أجوف ، وتحضرنا الآن تلك الاعلانات الوثنية التي زعمت ان الله ظهر في أشكال بشرية أو حيوانية . أما في الكتاب المقدس ، فان الله يكلم الانسان فيما له مساس بحياته الادبية والاخلاقية . والنيبي ، إن كان نبياً صادقاً ، يأخذ بأيدي البشر ليتقدم بهم الى حق الله ، معلناً لهم ما يقوله الله في ذلك الظرف المعين . فـ شعب إسرائيل يُساق الى النفي في بابل ، مؤمناً انه قد ترك الله وراءه في فلسطين ، ولكنه يجده في المنفى هناك معه . ويُساق هوشع النبي الى ادراك أعماق الأفكار عن محبة الله من طريق اختبار القاسي مع زوجته التي خانت عهده . وجملة الامر كله ، ان روايات الكتاب المقدس تعدنا لنرى انه لم يكن هيناً على الفلاسفة أن يستوثقوا من ذاتية القداسة والمحبة في الله . ولا عجب أن يكون الأمر كذلك .

وقد يُقال هنا: أفي وجهة النظر المسيحية شيء ما يبعدو حدود العهد القديم، أي دين اليهود؟ وليس لهذا السؤال إلا جواب واحد، وجواب جدّ خطير، ألا وهو أننا في الواقع نشرح العهد القديم في ضوء الجديد. والفكرة المسيحية عن الله لا تنفصل عن الموقف المسيحي حيال يسوع المسيح. وإن قلنا إن الله بار وأب محب، يطلب الخاطيء وينقذه، فكيف نعرف هذا؟ إنه ليس عقيدة، وحتى العهد القديم لا يعتصم بها واثقاً. فما جوابنا إذا؟

الاعتراف المعطى في يسوع المسيح

جوابنا الأول أن يسوع المسيح، الذي لا يجرؤ أحد اليوم على انكار تاريخيته، قد آمن بهذا وعلم به وعاش بموجبه. ففي أمثاله البسيطة الرائعة - الحروف الضال والابن الضال وغيرها كثير - نراه يضع في لغة عامة الشعب الحق المنطوي على أن الله أب، طبيعته المحبة القدسية. على أن هذا ليس كل الإنجيل، فإن يسوع يعلن الآب، لا في كلمات ينطق بها فقط، بل في حياته وشخصه. وبينه وبين الله الآب وحدة وانسجام في الفكر والقلب والارادة. وبينه وبين الآب علاقة سرّية متينة الأواصر، لم يستطع تلاميذه أن يتقصّوا مكنوناتها «أنا في الآب والآب في» - «من رأي فقد رأى الآب». فإن رمنا أن نعرف طبيعة الله، على قدر ما يستطيع الإنسان أن يعرف، فلا ندحة عن الرجوع إلى شخص يسوع.

فرسالة المسيحية عن الله ليست إذا عقيدة في مصطلحات وضعية، بل هي شخص - هو يسوع المسيح. وهنا تبدو لنا أهمية الأساس التاريخي

الذي يقوم عليه الدين المسيحي ، من حيث انه متأصل في يسوع . فهو ليس بدعة اختلقها أوهام الناس وخيالاتهم ، بل شخصاً ظهر على مسرح التاريخ . ولقد تعرضت البيانات التاريخية الموجزة عن حياته على الأرض الى أشد صنوف النقد الصارم ، بل لم تتعرض حياة أخرى الى الفحص الدقيق والى مسبر الامتحان والاختبار ، قدر ما تعرضت حياته ، ومع ذلك فقد خرجنا من هذا كله بيقين أشد وثقة أمتن بيسوع الناصري . وفي وسع المسيحيين أن يجابهوا العالم بأنجيل أساسه حقيقة شخصية لا يجد اليها الشك سبيلاً .

المسيحية والخطية البشرية

والآن نعود إلى موضوع آخر : ماذا عسى أن تقول المسيحية عن الخطية؟ كان على المسيحية منذ نشأتها الاولى أن تكافح وتناضل مع وجهات نظر الآخرين في معنى الخلاص . وانه لشيئ حقاً ان نلاحظ انها قد عُنيت عناية جدية من البدء بهذا الفارق الصارخ الذي مَيَّزها عن العقائد الأخرى . فالمذاهب الدينية الاغريقية الغامضة قد اتجهت عنايتها الى تقييد النفس البشرية في عالم من المادة والألم أكثر من عنايتها بحقيقة الخطية بالذات . ولم تكن الخطية في نظر كتاب الاسفار المقدسة المسيحية حماقة أو دمامة ، ولم تكن داءً أو جهلاً ، بل هي عصيان وارادة شريرة جامحة ، ليست موجهة إلى تقليد من التقاليد الاجتماعية المرعية ، ولا الى نظام أدبي عاطل عن العنصر الشخصي ، بل الى الله الحي ذاته . ولم تحتل التوبة مكانة رفيعة في الكتاب المقدس وحسب ، بل قد حثَّ الكتاب المقدس الانسان على

أن ينسب ويتوب ، لا عن هذا العمل أو ذاك من الأعمال الخاطئة ، بل من أجل نفسه. وعلمه أيضاً أن يحكم على نفسه ويدينها على أساس مقياس يسوع المسيح الادي .

وقل بين الناس من يفكر على المسيح سمو تعاليمه الأدبية الأخلاقية ، مهما يكن موقفه حيال المسيح ذاته . وليس هيناً على الذين يقرأون كلماته الأخاذة الخارقة عن النقائص البشرية مثل الأفكار الشهوانية ، والأعمال الجموحة ، أو الطمع في المال ، أن ينسوها أو يفضوا الطرف عنها . وهو يأمرنا أن نحب أعداءنا ، وأن نلقي وراء ظهورنا كل أثر من آثار الآداب الضيقة ، وأن نمارس بدلاً عنها المحبة الواسعة المجيدة ، التي في نطاقها يهي الآب السماوي غيته على الأبرار والأشرار سواء . ونحن نعلم علم اليقين انه حين نقرب الى يسوع ، لا نقدر أن نبلغ مستواه ، واننا واقعون تحت دينونته ، لا بسبب الخطأ الذي نأتيه ، ولكن بسبب الخير الذي نأباه . وحين تقع تحت مؤثرات ظهر يسوع ومحبته ، نتعلم شيئاً عن معنى الخطية .

وهل هذا كل ما في الأمر ؟ أليس لدى المسيحية مزيد مما تعطيه غير شريعة جديدة تفضل ناموس موسى ، وهي بعد ليست إلا ناموساً ؟ هنا يبدو انجيل الخلاص في أنصع مظاهره وأبهاها . فالخطية ، من وجهة النظر المسيحية عصيان ضد الله ، وشرود عن الصلة به ، ومعصية ضد قداسه تعالى . لكننا ندرك في سر الصليب أن الله لم يكتف بكراهة الخطية كراهية مقدسة ، ودينونته إياها والحكم عليها . انما يعلن لنا يسوع ، وهو على الصليب ، فكر الله في حمل الخطية على نفسه . ويبين لنا موت يسوع معنى خطية الانسان

في نظر الله ، كما ذهب اليه قدماء علماء اللاهوت في قولهم : « شناعة الخطية الشنيعة ! » — بل يبين أيضاً أن الله قد تنازل ليجدد الصلة التي قطعت خطيتنا أوامرنا ، ويتخطى الشقة التي أحدثها بيننا وبينه اعوجاجنا وزيفنا . ومن المبادئ الأولية التي يجب مراعاتها في وجهة النظر المسيحية عن الخطية والغفران ، ليس ما يفعله الانسان ، بل ما يفعله الله . وترى ما الذي فعل الله ؟ أليس يُسأل هنا في هذا المقام هذا السؤال الفاحص الخطير ؟

لقد رأينا مدى العصور كيف عالج الناس الموضوع . فهم إما قنعوا واكتفوا بمستوى من الآداب الوضعية المألوفة ، وأما أحنوا الرءوس أمام إله مطلق القوة ، قد خسفت القوة فيه كل صلاح ، بحيث لم يعد من الميسور إحكام صلة أديبة بين الانسان وبين الله ، وما انهم تعلقوا بأهداب رجاء خافت وأسطورة كريمة عن إله يبدأ هو نفسه من جانبه بالعمل على انقاذ الانسان . على أنه اذا اقتصر هذا الرجاء على رغبة الانسان ليس إلا ، فانا لا نتقدم قيد انملة الى ما نضبو من يقين .

وفي قلب المسيحية ، وفي لبابها ، عاش يسوع الناصري ، ومات ، وقام ليكون مع تلاميذه وأنصاره . وفي قلبها ولبابها أنه عاش في مكان عرفه التاريخ ، وفي حقبة عينيها الزمن ، ونسج الناس حوله أفكاراً ، لامن خيالات قلوبهم ، ولا في فضاء السموات الجاوية ، بل من قوة تأثيره فيهم وفضله عليهم . ولقد وجد الناس في يسوع المسيح حضور الله ذاته ، الذي تنزل ليفتديهم . وبأن ذلك الدليل الناصع في شعور السيد بان بينه وبين الله علاقة وثيقة . ويسوع هو الذي عرف أن ابن الانسان سيبدل حياته فدية عن

كثيرين . والذين كتبوا عن مجيء يسوع المسيح الى العالم ليخلص الخطاة ، ويموت عن الفجار ليصالح العالم مع الله ، كانوا قوماً ممن رأوا مرأى العين ، أو على الأقل عرفوا الذين رأوا السيد في حياته وفي موته الشنيع ، فتكلموا بما عرفوا هم أنفسهم .

وقد وقعت الواقعة فعلاً ، وتمّ العمل . ولم تعد الحادثة قصة يرويها الناس « عن » الله ، لانه قد أجرى فعلاً ما أراد في (كلمته) ابنه . ومن كان واحداً مع الأب قد حمل عبء خطايا العالم ، وقيل أن تنفذ فيه مشيئة الانسانية . فان كنا نؤمن في المسيح ان الله يحب أولاده الخطاة ويردهم — وهم عاجزون عن ذلك — إلى الصلة التي قطعوا وشائجها بأعمالهم ، فانه لا يسعنا أن نقبل هذا الايمان أمراً هيناً ، أو نتغاضى عن الكلفة الباهظة التي تقاضاها . ولدى مقارنة هذا بكل أنواع الترضية والاستغفار البشرية ، وبكل أسباب الشدة والآلام التي يحفل بها العالم ، فانا نرى هنا غفراناً قد أشتري ، لا بتضحية الانسان وآلامه ، بل بآلام الله ذاته .

* * *

هذه هي الرسالة التي تاق اليها البشر كما يتبين من الجهود والمحاولات المضنية في أديان العالم القديمة . فالذين تقربوا إلى الله ، أحسوا احساساً قهرياً بعدم جدارتهم واستحقاقهم ، وعرفوا أن بينهم وبينه شقة واسعة لا تتخطاها الذبائح ، ولا صرامة الزهد والتقشف وما ينطويان عليه من إضناء وتذلل . ولن يؤمنوا إلا متى رأوا الله يتخذ الخطوة من جانبه أولاً ويبدو امامهم متأهباً لقبول الانسان في صلة القربى التي انقطعت أواصرها . والغفران ، الذي هو

إعادة ودّ مقطوع واستعادة صلة مبتورة ، ليس معناه محو الخطايا كما تمحى الكتابة من على الصبورة، بل هو كلفة باهظة كما تتمثلها في الصليب وليس هذا مجرد الصفح والتجاوز عن الخطية ، فالله ليس « متراخياً متهاوناً »، ولكنه غافر غفور . هذا هو الحق الذي يتخذ قوة الخطية ويذل شوكتها .

وما الذي تقول المسيحية عن الحياة والموت ؟ قلنا ان انجيل المسيحية ليس مجرد شريعة جديدة تطاع بالروح القانوني . كما أن الحياة المسيحية في جوهرها هي صلة بالله فيها تستقر روح الله (وهي روح يسوع) في روح الانسان . وبذلك يتسنى للانسان أن يختبر حياة الله ، فيقوى على غلبة التجربة وعلى فعل مشيئته تعالى . وليس في هذا كله شيء من الشعوذة أو السحر ، فالعملية خاضعة لنواميسها البسيطة الجامعة . ذلك أنه اذا أراد الانسان باتضاع أن يسكن الله في قلبه ، ورضى أن يقبله ، معترفاً بخطاياه وطالباً في اخلاص ملكوت الله قبل كل شيء ، فان الروح الالهي ينساب إلى داخله ، ويبدل تدريجاً حياته ويجدد شخصيته .

وفي هذه الصلة بين الله والانسان ، في يسوع المسيح ، يتوافر لنا الرجاء المسيحي في الخلود . ولم يقل العهد الجديد إلا قليلاً لاشباع رغبة حب الاستطلاع والوقوف على وصف تفصيلي مسهب للعالم الآخر ، ولكن الكتاب المسيحيين أفصحوا بجلاء عن نقطة واحدة: وهي أنه متى أحكت هذه الصلة الجوهرية بين نفس الانسان وبين الله في المسيح، فلن يكون للموت سلطان على تلك النفس . لأن هذه الحياة الجديدة أقوى من القبر . ويغدو الموت طوراً من أطوار الرحلة ، لا يعقبه أدوار متوالية من الوجود المتتابع كما يذهب

اليه الهنود في عقيدة تناسخ الأرواح، وإنما يعقبه وجود سعيد تظهر فيه بأجلى معانيها الحياة المستترة في المسيح . وحين يؤمن المسيحيون بقيامة المسيح من الأموات ، لا يقتصرون في هذا على المسيح وحده ، بل يؤمنون أيضاً أن المؤمنين به سيقومون مثله . كيف لا وقد « صار باكورة الراقيين » .

المسيحية والتقدم

ومن النتائج التي تترتب على هذه العقيدة في الروح واهب الحياة، أن للمسيحية هي بالضرورة ، كما أسلفنا، دين التقدم والرقى . وربما يبدي المسيحيون في بعض الأحيان شيئاً من الضعف والهزال في هذا المضمار ، ولكن الأمر الذي لا ينكر أنه حيث يسود الروح المسيحي الحق ، يصبح الصوت الداوي حاثاً الناس على التقدم والارتقاء . ومن الطبيعي أن ينظر القوم الذين يؤمنون في الله كروح ، بينه وبين البشر صلة ، الى الحياة كأداة لمظهر الله وإعلانه ، وأن يتعلموا المزيد من ارادته وطرقه ، كلما تقدمت الاجيال وتعاقبت العصور .

بساطة الرسالة المسيحية

وإن كانت هذه اذاً خلاصة الرسالة المسيحية ، فانا نلاحظ فيها لأول وهلة بساطتها المتناهية . وحين نقول إن رسالة الانجيل بسيطة، لا نقصد من وراء ذلك الخط من قدر الجهود العقلية . فان هناك عالماً زاخراً يكشف في هذه العبارات البسيطة ، وحكمة الانسانية لن تستوعب سراً معنى هذه الرسالة . ولكنها بسيطة بكل معنى الكلمة من حيث أنها تعنى أصلاً بموقف النفس أزاء الله ، وانها تجول في نطاق الحقائق الجوهرية العظمى التي تربط

الجنس البشري معاً ، عالمهم وجاهلهم ، كبيرهم وصغيرهم . وقد أستنبط من المسيحية كمية هائلة من العقائد (ولا ضير في هذا) ، ولكنها ما فتئت فصيحة البيان قوية النبرات ، حين تواجه الحياة في أبسط أوضاعها وأصدقها ، وحين يجابه الرجال والنساء مشاكل الزمن والأبدية .

المسيحية ديمه جامع

ونرى ثانياً أن الانجيل في جوهره رسالة جامعة شاملة ، فليس فيها ما يقتصر فقط على أمة واحدة ، أو جنس واحد ، أو طبقة واحدة من الناس . ولم يفقه التلاميذ الأولون في بادئ الأمر أن الحدود اليهودية الضيقة قد زالت ، ولكن عبقرية الرسول بولس قد فطنت الى تضاعيف الرسالة من هذه الناحية ، وعرف أنها لليهودي والاممي ، والبربري واليوناني ، والذكر والانثى ، على السواء ، دون تفريق أو تمييز . فهل نحن في شك من هذا ؟ إن اعلان الله في المسيح قد خلا من كل نعة عنصرية أو نزعة ضيقة — هو يسع البشرية قاطبة . وانجيل الخلاص من الخطية لجميع الناس ، كلهم فيه سواسية ، وهو لا يقوم على ذبائح وتقدمات معينة ، ولا يتطلب ميزات عنصرية خاصة . وليس أساسه استحقاق الانسان وجدارته ، بل عطف الله ومحبته . حقاً ان رسالة الحياة في روح الله وقوته ، التي بها يغلب الانسان التجربة ويفعل مشيئة الله ، جامعة شاملة في دعوتها وفي آثارها . فلا حدود فيها ولا قيود ، ولا شرق ولا غرب . ولا قداسة متفوقة للمستجدين البرّ ، ولا انكار لحق البسطاء والجهلاء .

في رؤيا السماء — ولكنها حياة بشرية كاملة، لأنها إلهية كاملة، فيها يشترك كل الناس على قدم المساواة .

وانه من الخطأ أن نزعّم أن المسيحية واحدة بين نظم عديدة متنافسة . ونحن اذا قارناها بالاديان الاخرى ، فذلك لكي نرى بأوضح بيان حاجات النفس كما تمثلت في سعي البشرية الدءوب نحو الله، ولكي نرى كيف يشبع دين يسوع تلك الحاجات اللجوجة ، ويستجيب الى تلك الصرخات الصامتة . وان كان ثمة شيء حق أو جميل أو جليل أو صيته حسن ، في أي من أديان العالم الأخرى ، فالمسيحية لا تنكره ولا تبطله . وليس شيء من الحق في أي دين آخر من أديان العالم لا نجده في المسيحية، بل ان الاشياء التي رآها البشر في مختلف العصور بصور باهتة داكنة، والتي تآقت اليها الانسانية مدى الاجيال، تراها متلعة في المسيحية ، ناصعة البيان قوية الوضوح. فان الدين ليس كفاح الانسان في طلب الله وحسب، وليس هذا كل ما في الدين، انما هو أيضاً اعلان الله ذاته للانسان. واقد تآقت البشرية ، كما رأينا في هذه البحوث ، أن تؤمن بالله قدوس محب. وحين يحىء يسوع الناصري في وسطنا، حينذاك تستجاب « صلاة الجنس البشري » . وحين نفوز بالجواب ، نُعطاه على نمط يفهمه الطفل في سداجته ، والشيخ في رصانته . ويفهمه الفقير والجاهل جميعاً .

مطالب المسيحية

وان صح هذا ، وهو صحيح ، وان كان الانجيل حقاً رسالة للبشرية قاطبة ، كان على الذين يؤمنون به تبعة ثقيلة . فهو إما رسالة يبشر بها العالم

كله وإلا فلا . وان قلنا إن الانجيل ليس للهندي أو الصيني أو الشرقي ،
فهو لن يكون للانكليزي والامريكي والغربي ، وأحسب الضمير المسيحي
يستيقظ تدريجاً الى عرفان هذه الحقيقة ، ونعني بها وحدة المهمة المسيحية في
العالم أجمع . فان الأسرة البشرية بأسرها مرتبطة بهذه الشركة الواحدة العظمى .
وتزول الآن بفضل التجارة والتعليم والاسفار والمؤثرات الأخرى ، تلك الحواجز
المادية التي قامت من قبل فواصل بين شعوب الأرض . فهل نتصور ان
المسيحية التي تغلق احشاء رحمتها وهي ترى العالم مغموراً في الضنك والضنى ،
تستطيع أن تبرىء ادواء المجتمع في البلدان التي تدعو نفسها مسيحية ؟ وفي
صدد دين المسيح نحسب كل بخل أو شح في الروح أمراً خطيراً جسيماً . فالكل
للمسيحية وإلا فلا . والسبيل الامين الوحيد أمام الكنيسة المسيحية أن تنهض
لتقوم بالمهمة التي تبدو أمامها مستحيلة . أما اذا اقتصرنا على الجهاد في زاوية
واحدة ، شلت قوتنا ، وجمدت أعصابنا . فلنواجه المهمة كلها في ثقة هادئة مطمئنة
معتمدين على الله ، عندئذ تعمل قوة الله ومحبتة في عنفوان قوتها ، ونكون لها
شهوداً ، ونكون لها حماة الى أقاصي الأرض .

* * *

ولعل مسك الختام لهذه البحوث أن ننشر هنا الرسالة التاريخية الرائعة
التي أذاعها المؤتمر المسيحي الدولي الثالث من مدارس في بلاد الهند على كل
شعوب الأرض .

رسالة

المؤتمر المسيحي الدولي الثالث

الى كل شعوب الارض

سلاماً الى كل شعوب الأرض

وبعد، فنحن سبعون وأربع مائة مندوباً قد اجتمعنا من سبعين أمة ومن أجناس كثيرة في الأرض، لنبحث عن أمثل الوسائل التي نذيع بها في العالم رسالة محبة الله الازلي المعلنه في يسوع المسيح .

ولقد تبينا من التقارير التي انتهت اليها، من كل انحاء الأرض، ان الأوبئة القديمة التي تفتك بالانسانية قد نشطت في هذا العصر نشاطاً لم يسبق له مثيل . ففي كل بلد من بلدان العالم يجثم شبح الحرب أو الخوف من الحرب على قلوب الناس، ويسدل ظلاله الكثيفة على آمال البشرية وأمانها، والكراهية بين الجماعات والشعوب، وما ينجم عنها من اضطهاد قبيح مذموم قد أمست إلهاً قومياً في كثير من الميادين ، وتزداد سطوة هذا الاله حتى ليخشى أن يغدو معبوداً تعنوا له الجباه ، والجشع الكلب في المال يقيم فاصلاً بين الذين لهم والذين ليس لهم ، ويحفز الاخيرين على الغضب والانتفاض والثورة، ويُفزع الاولين بداء العصبية التي يحسُّ بها القوي حينما تستهدف قوته للخطر .

ومرة تلو أخرى أحسنا بشعور الاستنابة والندم ، بعد اذ أدركنا أن كل هذه المساويء الآكلة من صنع يدي الانسان . وهي تحمل معها طابع الصنعة البشرية ، كما تحمله السيارة أو الطائرة . فلا الفيضانات الجارفة ، ولا الزلازل المدمرة ، ولا قوى الظلمة الغامضة الخارجة عن ارادتنا ، هي التي تشعل نيران الحروب أو تخلق التوتر الاقتصادي . وأنا لنعلم اننا عاثون في فوضى خلقناها بأيدينا .

ومرة تلو الاخرى ، أدركنا على مضض أن المساويء التي تصدمنا ليست من صنع اردياء الناس وحسب ، بل من صنع أخيارهم أيضاً . فان أخطر نكباتنا وأشنع مصائبنا لم تحل بنا على أيدي أناس تعمدوا إيقاع الجنس البشري في الاضطراب والقلق ، بل على أيدي قوم ظنوا انهم فعلوا أفضل ما لديهم في الظروف المحيطة بهم . ولم يقم بعد الانسان الذي كان له من الحكمة واصالة الرأي قسط يمكنه من تخليص العالم من آلامه الحاضرة . ولم نعرف بعد الانسان الذي له من هذه الحكمة واصالة الرأي قسط يستطيع به ان ينتقذنا الآن .

على اتنا في هذه اللحظة نرانا مضطرين للاستناد إلى ايماننا لنخلص من التشاؤم إلى رجاء مجيد . ونعلم يقيناً ان هناك « واحداً » — على غير غرارنا — لا يُهزم ولن يعرف الهزيمة . ففي اعلان المسيح نرى الله ، لا إلهاً بعيداً لا يبالي ولا يعبأ إلا بنفسه ، بل أباً محباً للجنس البشري كابناء له ، حباً لا يُوصف ولا يُستقصى . ونحن الذين عرفنا المسيح رسوله وابنه ، مصدعاً بالألم على الصليب الذي ارتفع عليه بسبب محبته للانسان — قد فزنا برؤيا

خارقة متلعة، ازاحت لنا اللثام عن عمق عاطفة الله نحو خاصته . وبسبب هذه الرؤيا المجيدة استعذب المسيحيون مية الاستشهاد مدى عصور التاريخ، ونزحوا عن الأهل والوطن إلى أقاصي الأرض لحمل رسالة الأنجيل . وفي اتضاع كثير نسجل هنا شكرنا وامتناننا أن نرى - حتى في هذا العصر - دلائل متكاثرة على أن الرجال والنساء ما برحوا ينزحون إلى أوطان الاغتراب رسلاً أمناء مجاهدين لأجل المسيح .

ومما لا مرأ فيه ان الله وحده هو الذي ينقذ الشعوب ، وان الله أبا ربنا يسوع المسيح هو الذي يقدر ويريد أن ينقذ . وانه لي لوح لنا جلياً ان الوسائل التي يتطلبها الله ليست الرجال والنساء من أصحاب المثل العليا وحسب ، بل هم الذين يجاهدون في غير انقطاع بالصلاة والعبادة لتحقيق هذه المثل العليا على نور ارادته الصالحة - ويثابرون في غير وناء على تمحيص هذه المثل وتوكيدها . والله لا يطلب في الأزمة الحاضرة انسان الاخلاق المجرد . انما يطلب الذي يوقظ جذوة النار في اخلاقياته وأديياته ، ويثابر على النماء المضطرد متجدداً كل يوم بلعسة الله المنعشة . وليس يستطيع أحد منا الوقوف بلا عيب أمام نعمته ، على أن الرجاء الوحيد امام العالم متعلق بالذين يجاهدون على الأقل أن يعرفوه وأن يتبعوا طريقه .

أما الآلهة القومية من أي نوع كانت، وآلهة التعصب للعنصر أو الطبقة، فهذه أعجز من أن تخلصنا . ثم ان الاعتراف بالله في المسيح لا يسلب الانسان الولاء لامته أو أسرته أو ثقافته . وحينما تأخذ أية أمة المسيح أخذاً جدياً . وحينما تعتصم به أية ثقافة قديمة ، فهو لا يفقدها ذرة من الخير فيها ، بل على

نقيض ذلك يرفعها إلى مصيرها الأعلى ، ولكنه ينقذها من الضيق بنفسها ،
ويسط أمامها مجالاً جديداً للنمو والارتقاء ، ويهيئ لها إرادة صالحة أكثر
اتساعاً من الولاء القومي أو الولاء الضيق لثقافة معينة ، إرادة تتسق ومحبة
الله الواسعة .

ولقد رأينا في وسطنا أن الولاء لمبادئ المسيح يصنع العجائب بين الرجال
والنساء . وإذا صلينا ذابت ، فيما نحن نصلي ، الحواجز التي تفصل قومية عن
أخرى وطبقة عن أخرى . وإذا قد ارتبطنا في الروح القدس بعضنا ببعض وكلنا
بالله ، فانتا قد عرفنا معنى الشركة والألفة . ونحس أن هذه الحالة التي عرفنا
وعدنا لما يمكن أن يكون على كل الأرض .

ونوجه إلى كل الزملاء المسيحيين في العالم أجمع نداء لكي يشاركونا
في تكريس جديد لله . وما لا شك فيه أن الله يدعونا في هذه الاوقات
لنخرج انفسنا من نطاق الذاتية الضيق ، وان نقبل على مذابحه ، وان نتعلم
منه ، وأن نعلن طرقه للناس في كل علاقات الحياة . ولكي نعلن الله للدولة ،
علينا أن نجاهد لتوطيد العدل بين جميع الناس . أما في عالم التجارة ، فعلينا
أن نضع حداً لهذا التنافس القتال سعياً وراء المنافع المادية الشخصية ، ونعمل
لتعميم الخير العام الشامل للجميع . ان الحال يتطلب منا في كل مكان خدمة
مضحية مشربة بروح الايثار . والله نسأل أن يعين كنيسته لتحمل قصة
محبه الى البشرية قاطبة ، حتى تشمل هذه المحبة الأرض كلها ، وتربط
الأمم والأجناس والطبقات بروابط العطف المتبادل ، متمنقة في هذا كله
بايمان في المسيح ، لا غالب له ولا قاهر .

بيان عددي

لا تبايع أديان العالم الكبرى

(منقول عن "The World Almanac, U.S.A.")

١٥٠٠ و ٦٣٠ و ١٥٠٠	يهود
٢٠٩ و ٠٢٠ و ٠٠٠	مسلمون
٦٨٢ و ٤٠٠ و ٠٠٠	مسيحيون
١٥٠ و ١٨٠ و ٠٠٠	بوذيون
٣٥٠ و ٦٠٠ و ٠٠٠	كنفوشيوس وتاوزميون
٢٣٠ و ١٥٠ و ٠٠٠	هندوس
٢٥٠ و ٠٠٠ و ٠٠٠	شنتويون
١٣٥ و ٠٠٠ و ٠٠٠	عباد الأرواح الخ .
٨٠ و ٨٧٠ و ٠٠٠	أديان مختلفة أخرى

والمقصود « بعباد الأرواح » تلك الأديان الوثنية الساذجة والجماعات البشرية التي تعتقد في الحيوانات أو الجمادات أو الأرواح التي يدين بها

الوثنيون في أفريقية والقبائل المتأخرة في بلاد الهند وأمريكا الجنوبية وأستراليا .

أما « أتباع الأديان الأخرى » فهم الجماعات الصغرى المتفرقة مثل الدروز وأتباع زرادشت وغيرهم .

على أنه من الحق أن نقول إن هذا البيان تقريبي فقط ، فكثيرون من الكنفوشيين والشتويين مثلاً بوذيون أيضاً ، وإذا أخذنا بهذا القياس يزداد عدد البوذيين عن الرقم المبين هنا . ثم إن كثيراً من هذه الأديان تنتشر في بلدان خلو من الاحصائيات الدقيقة . وحسبنا أن نجد في هذا البيان فكرة عامة عن القوة العددية لكل دين من أديان العالم الرئيسية ، وإن كانت هذه القوة العددية لا تعيننا بقدر ما تعيننا القوة الروحية التي يعترف بها كل دين ويحسبها ثروته الباقية ، ومصدر منعته ، وأكبر عوامل انتشاره .

بيان تاريخي

يبين بوجه التقريب الحوادث التاريخية
في هذا الكتاب

قبل الميلاد

تاريخ كتابة « شوكنغ » وهو مجل التاريخ الصيني	٢٠٠٠ - ٦٢٧
» » « شيكنغ » وهو كتاب أودس الصيني	١٧٦٥ - ٥٨٥
التاريخ التقريبي لجمع أناشيد « فيدا » الهندية	١٠٠٠
» » لعصر زرادشت الفارسي	١٠٠٠
تاريخ كتابة أسفار البراهمة الهندود	٨٠٠ - ٥٠٠
نبوات عاموس	٨٠٠
» هوشع	٧٥٠
» اشعيا	٧٤٠
» ارميا	٦٢٧

مولد لاوتر	٦٠٤
مولد كنفوشيوس	٥٥١
التاريخ التقريبي لمولد بوذا	٥٠٠
مولد أفلاطون	٤٢٧
» أرسطو	٣٨٤

بعد الميلاد

تاريخ الصلب	٣٠
كتابة بشارة مرقس	٦٠ — ٦٥
» بشارة متى ولوقا	٨٠ — ٨٥
» بشارة يوحنا	١٠٠ — ١٢٥
الفراغ من كتابة « المشنة اليهودية »	٢١٩
مولد محمد	٥٧٠
الهجرة	٦٢٢
مولد محيي الدين بن العربي	١١٨٢
وفاة بن العربي	١٢٦٠

فهرس

صفحة

١ — البوذية	٥
٢ — الهندوسية	٢٣
٣ — الكنفوشية	٤٠
٤ — الشنتوية	٥٧
٥ — اليهودية	٧٢
٦ — الاسلام	٧٧
٧ — المسيحية	٨٤

0
21

Bibliotheca Alexandrina



0236884